الطريق إلى الله

عبد الرحمن

فضيلة الإمام العلامة نور الدين

علي جمعة

مفتي الديار المصرية



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر



لِفَضِيلَةِ الإِمَامِ العَلَّامَةِ
نُورُ الدِّين
عَلِيّ جُمْعَة
مُفْتِي الدِّيَارِ المِصْرِيَّة



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنـا .... أمانـة في أعناقنـا

الطبعـة الثانيـة

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٥٨٧

الترقيم الدولي I.S.B.N.

٩٧٧-٦٢١٤-٠٣-٧



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

تراثنا .... أمانة في أعناقنا

٧٠٤٧ شارع ١٧- المقطم - القاهرة - مصـــر

تليفون: ٢٥٠٨٧٣٨٣- ٢٠٢+ - ٢٥٠٧٦١٤٥- ٢٠٢+

E-Mail: Info@Alwabell.com

www.alwabell.com

www.alimamalallama.com


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وعلىٰ من تبع هداهم إلىٰ يوم الدين، وبعد..

هذا الكتاب هو عبارة عن نتاج تفريغ سلسلة دروس ألقاها فضيلة العلامة الشيخ/ علي جمعة بمسجد العشيرة المحمدية بالدَّرّاسَة علىٰ مدار أحد عشر درسًا عام ٢٠٠١م، بيَّن فيها فضيلته معالم الطريق إلىٰ الله تعالىٰ، وكيفية تخطي العقبات التي تقابل السالك، والتبصرة بالآفات التي قد تلحق المريد أثناء سيره؛ وكيفية التخلص منها، وهذا كله قد خرج من قلب قد وعىٰ الشريعة والحقيقة، ممن قد خاض هذا البحر وسبر غوره، مربٍّ فاضل قد سلك كثير من طلاب الحق والحقيقة علىٰ يديه؛ فأرشدهم ووجههم حتىٰ وصلوا إلىٰ شاطئ الأمان وبر العرفان، وهو -حفظه الله- في هذه الدروس قد لَخَّص ما حَصَّل من أنوار وبركات وفيوضات مشايخه الذين كانوا أقطاب عصرهم وقدوة زمانهم؛ فهو بذلك -جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير- قد مَهَّد الطريق لكل من أراد الوصول، وزلل الصعاب لكل من أراد التمسك بالأصول، وبالله التوفيق.

الناشر





بسم الله الرحمن الرحيم

حديث جبريل وأنَّه أصلٌ بَنَت عليه الأمة علوم: الفقه، والعقيدة، والتزكية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله خير خلق الله أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين.

أما بعد... فهذا كتاب: (الطريق إلى الله) والذي نتعرض فيه لشرح مراحل السير إلى الله تعالى، وما أبداه أهل السلوك والمعرفة بالله في هذا الشأن من معانٍ دقيقة، ومدارك رقيقة، في كيفية السلوك والسير إلى الحق سبحانه.

وأول ما نستهلُّ به كلامنا هو حديث جبريل المشهور، الذي اشتمل على معالم الدين الكبرى، والذي أخرجه الأئمة الكبار، واهتموا به، وجعلوه من الأحاديث التي توضح دين الله، وفي آخره يقول سيدنا رسول الله ﷺ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[1].

وجبريل عليه السلام كان يأتي في صورة مرئية للصحابة، مرة في صورة صحابي اسمه: دِحْيَة الْكَلْبِيّ، وكان دِحْيَة رضي الله عنه جميل الهيئة، وقد أرسله النبي ﷺ للسفارة مرات، أي أنه كان سفيرًا عن المسلمين عند غير المسلمين، فكان

(١) رواه مسلم.



سيدنا جبريل عليه السلام يأتي المسلمين في صورة دِحْيَة، وكان بعضهم يدرك أنه جبريل إذا ما ظهرت بعض الظواهر الخارقة للعادة حوله، كأن يختفي فجأة، أو يظهر فجأة، وكأن يكون بينهم من غير إدراك لبداية دخوله، ولا لنهاية انصرافه.

فجاء جبريل عليه السلام إلىٰ رسول الله ﷺ، فجلس إليه جلوس المتعلم إلىٰ معلمه، ووضع يديه علىٰ فخذيه، أي: علىٰ فخذي جبريل، وسأله: «**يَا رَسُولَ اللهِ مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**». قَالَ: صَدَقْتَ. فَقَالَ عُمَر: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ!!؛ لأن السؤال يقتضي الاستفهام، والاستفهام طلب المعرفة، وتصديقه معناه أنه يعلم هذا الأمر قبل ذلك، واجتماع هذين الأمرين عجيب.

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: وَمَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

وقد جعل العلماء هذا الحديث سببًا لتحصيل العلوم الشرعية، فأقاموا علومًا تحفظ الإيمان أسموها: (علم التوحيد)، أو: (علم الكلام)، أو: (علم العقائد)، أو: (أصول الدين).

وفي هذا العلم نقل العلماء لنا كل ما أمكن من أسئلة، وإجابات عن الأسئلة، فيما يتعلق بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، وجعلوا علم التوحيد هذا علىٰ ثلاثة أبواب:

الباب الأول: يتكلمون فيه عن الله: ما يجب، وما يستحيل، وما يجوز في



حقه ﷻ.. وكيف ذلك؟ ومن أين أتوا بذل من الكتاب والسنة.

الباب الثاني: جعلوه عن النبوات، وتكلموا فيه عن صفات الرسل الكرام، وما يجب، وما يستحيل، وما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام.

الباب الثالث: جعلوه في السمعيات، وهي الأمور التي جاءت إلينا من قبيل السمع لا من قبيل الفكر، والنظر، والعقل، والتفكر، والتدبر، كاليوم الآخر، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، والحساب، والملائكة، والجن، وغير ذلك مما جاء في القرآن والسنة فآمنّا به، فهذا العلم الشريف قام بمرتبة الإيمان.

وأقاموا الفقه ليحافظ على الإسلام، فتكلموا في الفقه، وأصَّلوا فيه حتى زادت الفروع الفقهية عن مليون فرع فقهي، مصدرها كلها الكتاب والسنة.

وقد اختلف الناس في فهم الكتاب والسنة فيما يتعلق بالفقه، فكانت هناك المذاهب الفقهية، وكانت أكثر من تسعين مذهبًا، وبعد ذلك رأوا أن هذه المذاهب تتشابه، وفي بعضها لم يكن للعالم بعد وفاته تلامذة يقومون بمذهبه، ويبلغونه لمن بعدهم، ولذلك قامت هذه المذاهب، وكانت حوالي خمسة وتسعين مذهبًا، فذهب منها ما ذهب، وبقي منها ما بقي، حتى صارت المذاهب الثمانية الباقية إلى يومنا هذا، منها أربعة مشهورة، وهي مذهب: الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنابلة، ومنها أربعة غير مشهورة، لأن عدد المتبعين لها قليل، وهي: الجعفرية (ويتبعها الشيعة)، والإباضية (ويتبعها أهل عمان وبعض أهل الجزائر)، والزيدية (ويتبعها بعض أهل اليمن)، والظاهرية (ويتبعها قليل جدًا من أهل المغرب).

فأصبح هناك على سبيل الشيوع التام الأئمة الأربعة: أبو حنيفة، وقد مات



سنة مائة وخمسين من الهجرة، عن سبعين سنة، فهو من مواليد سنة ثمانين، ومالك، وقد مات سنة مائة وتسع وسبعين من الهجرة، عن سن بلغ أربعًا وثمانين سنة، أو ثمانيا وسبعين سنة؛ لأنه من مواليد سنة تسعين، أو سنة ست وتسعين، والإمام الشافعي مات عن أربع وخمسين سنة؛ لأنه ولد سنة مائة وخمسين من الهجرة، ومات سنة أربع ومائتين، والإمام أحمد بن حنبل ولد سنة أربع وستين ومائة، ومات سنة مائتين وواحد وأربعين تقريبًا، فهؤلاء الأئمة الذين نقلوا لنا الفقه وحافظوا عليه، لأن هذا الفقه موروث عن الصحابة والأئمة المجتهدين عبر الزمن.



(باب)
التصوف علمٌ مبني على الكتاب والسُّنة وعلى ما عمل به الصالحون وجربوه في إطار الكتاب والسُّنة

ثم بعد ذلك بقي جوهر الدين وأساسه، وهو التزكية، أو هو مرتبة الإحسان، فالتفت إليها الناس، وكما أن العقيدة حفظت بعلم التوحيد، والشريعة حفظت بعلم الفقه، قام علم السلوك والتزكية بحفظ مرتبة الإحسان، وبدأ الناس يصنفون، ويراقبون أنفسهم في طريق الله الذي يوصل إليه، وفيه يسير العبد إلىٰ الله، ويعبد الله كأنه يراه.

تأمل العابدون في أنفسهم، وسجلوا تجاربهم، لينتفع بها من بعدهم، فنشأ هذا العلم، وهو علم التصوف، فعلم التصوف له مصدران:

المصدر الأول: الكتاب والسنة، والمصدر الثاني: هو الواقع والتجربة.

ومن هنا اعترض كثير من الناس علىٰ التصوف؛ لأنهم لم يُصدِّقوا ما عليه العُبَّاد من أحوال، وما سطَّروه من تدرج في مراقي العبودية، وما سجلوه من أحوال تطرأ عليهم، أرادوا بها أن يفيدوا من خلفهم، فتشكك بعض الناس، ولذلك قال الأئمة لهم: (من ذاق عرف، ومن عرف اغترف)؛ لأنه إذا ذاق، وخالطت حلاوة الإيمان قلبه، اغترف، وطلب الزيادة، ولم يعد يكفيه أن يأخذ الأمر رشفةً رشفةً، ولا رشحةً رشحةً، ولا نقطة نقطة؛ بل يريد أن يغترف من المعرفة، وأن ينهل من هذا الجمال الرباني، وهذه الحلاوة الربانية.



وهذا ما أدركه هِرَقْل عندما سأل أَبَا سُفْيَانَ عن الذين يؤمنون: «أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ»؟ فقال أبو سفيان: «بَلْ يَزِيدُونَ»، قال: «وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ»[1]، يقصد أنها لا تخرج بعد ذلك أبدًا، فالصوفية قاموا، وسجَّلوا أحوالهم في ظل الكتاب والسنة، ومنطلقهم في ذلك هو الوصول إلى الله.



(١) رواه البخاري في صحيحه: (٨/١)، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وفي عدة مواضع في الصحيح، ومسلم في صحيحه: (١٣٩٥/٣)، وابن حبان في صحيحه: (٤٩٤/١٤) وغيرهم.



(بـاب)

من قواعد الطريق إلى الله : أن الله مقصود الكل

أول قاعدة عند السالكين إلىٰ الله هي قولهم: (الله مقصود الكل)، وهذه العبارة من العبارات البليغة، التي تُكَوِّن أسس الطريق وأصوله، فمن أراد أن يكتبها وأن يحفظها فليكتب: (الله مقصود الكل).

وهذا هو الذي تسأل عنه المشايخ في مفتتح سلوكك إلىٰ الله، تسألهم: ما المقصود؟ فيردون ويقولون: الله... وقد يعرف السائل المقصود والمعنىٰ الذي تقصده؟ لكنه لا يراه؛ لأنه مستغرق مع الله يذكر ربه، أنا أسأله عن معنىٰ الكلام؟ أو عما يعني؟ فإذ به يذكر أنه متوجه بالكلية إلىٰ الله، فيقول: الله... وهذا هو حال المشايخ الكبار، ومن هنا قالوا: (الله مقصود الكل)؛ أي أن كل الأولياء والمشايخ الكبار كان مقصودهم هو الله ﷻ، وشبهوا السعي إلىٰ الله تعالىٰ، والذي هو مقصود الكل، شبَّهوه بطريق توصلك إلىٰ الله تعالىٰ في نهايته، كأن الله في نهاية طريق بين المريد وبين المراد، بين العبد وبين الخالق ﷻ، فأسموا ما يسيرون فيه من عبادة بالطريق؛ لأنهم رأوا أن هذا التشبيه هو أقرب شيء يستطيعون أن يصفوا به ما توصلوا إليه من معارف وأذواق، وما توصّلوا إليه من عبادة، ومن أفعال، ومن سلوك مع الله، شَبَّهوا هذا بالطريق فأسموه: (**الطريق إلىٰ الله**).



(باب)
ومن قواعد الطريق: أن ملتفتًا في طريق الله لا يصل

قالوا في هذا الطريق قاعدة أخرىٰ: (ملتفتٌ لا يصل)، فإذا كنا في طريق، وأردنا أن نصل إلىٰ نهايته، فعلينا أن نسعىٰ، وأن نسير فيه غير ملتفتين عن يسارنا أو عن يميننا، فلو سرت مثلًا في طريقٍ ممتلئٍ بالمبهرات، وبالأضواء، وبـ (الفاترينات)... إلخ، فوقفت إلىٰ كل (فاترينة) أشاهد، وأدخل المتجر، وأسرح في الداخل، فإن العمر يضيع في هذه الالتفاتات، والأعمار تتفاوت، والزمن كالسيف إن لم تقطعه قطعك، قال الإمام الشافعي: (سرت مع الصوفية فاستفدت منهم أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك).

(ملتفت لا يصل)!! أصلٌ كبيرٌ من أصول الأدب مع الله، ومن هنا وجب أن يكون العمل خالصًا لله، لا ألتفت إلىٰ الأنوار، ولا إلىٰ الأسرار، ولا إلىٰ الملك، ولا إلىٰ الملكوت، ولا إلىٰ التجليات، ولا إلىٰ غير ذلك، إنما المقصود هو الله.

من أجل ذلك إذا ذكر العابد ربه فإن الذكر يجلي قلبه، ويجعله كالمرآة، وإذا صار القلب كالمرآة انعكست عليه أنوار الربوبية، وانعكاس أنوار الربوبية يحدث لذة عجيبة، ليس لها مقابل في اللغات بحيث يمكن أن نشبهها، أو أن نتكلم عنها وحولها، ولا يمكن أن ننقل كنهها، ولا يعرفها إلا من جرّبها؛ فإن من ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ولا يمكن أن نعرف إلا بالتجربة، وبترويض النفس.



فالذِّكْر أول خطوة في الطريق، وهو يؤدي إلىٰ صقل القلب، ويجعل القلب كالمرآة، وملتفت لا يصل، فإذا ذَكَرْتَ الله، فحدث لك خارق، فانشغلت بهذا الخارق، فقد دخلت في المبهرات، وبدأت في الالتفات، وهذا هو بداية الانحراف، حيث دخلت في المبهرات، فتكون بذلك غير مخلص مع الله.



(باب)
وجود الشيخ الْمُرَبِّي ضرورة في السير إلى الله

اشترط الصوفية وجود الشيخ في طريق السير إلىٰ الله، لأنه هو الذي يوجّه المريدَ أن يعود مرة ثانية إلىٰ الطريق، وأسموه بالشيخ المرشد، وجعلوا الشيخ بناءً علىٰ التجربة التي لا تعارض الكتاب والسنة بل تنبع منهما، وفيها تأييد من الكتاب والسنة، علىٰ ما كان حال النبي ﷺ مع الصحابة، وعلىٰ ما كان حال الصحابة مع التابعين إلىٰ يومنا هذا.

وقد جعلوا الشيخ أنواعًا ودرجات، فهناك: (الشيخ المرشد) وهو من يَعلم الطريق، ويَعلم المبهرات التي حوله، ويعلم كيف يتجنبها السالك، ويَعلم كيف ينصح؟ وكيف يُعَلِّمُ الأدب مع الله؟ لأن الأدب مع الله هو الركن الركين في الطريق، والله هو مقصود الكل، فالشيخ يحاول مع المريد أن يصل به إلىٰ الأدب مع الله، وأول ما يعلمه من أبواب الأدب: الذكر، وثاني ما يُعَلِّمه: عدم الالتفات عن الله، الذي هو مقصود الكل.

وقد يكون الشيخ: (مرشدًا تامًا)، وهو الذي يسمىٰ بالوارث المحمدي، والوارث المحمدي يراعي تلامذته ومريديه حتىٰ علىٰ الغير، فإن الله ﷻ من شدة صفاء ذلك المرشد الكامل، ومن شدة صقل قلبه تنعكس علىٰ ذلك القلب الأحوال الحادثة مع المريد، حتىٰ مع نفسه، فرأوا -عن تجربة- أنه إذا ما رأىٰ الشيخُ المريدَ فإن الله يكشف له مساوئ ذلك المريد ونقصه، ومع ذلك لا يتأثر لهذا النقص، ولذلك لا نخاف من أن يظن ظنًا سيئًا في المريد؛ لأنه



يعلم أن النقص قد استولىٰ علىٰ جملة البشر إلا من عصمه الله، إنما الغرض من اطلاع الشيخ علىٰ هذا هو أن يربي المريد بناءً علىٰ معرفة تامة بأحواله، وأن يرشده، وأن يدلَّه علىٰ الخير، وأن يكمل نقصه، وأن يجذبه مما هو فيه من انحراف -إن كان- وأن يعود به إلىٰ الطريق، وأن يدفعه فيه.

فالطريق إذن لا يستلزم دائمًا -وفي كل حال- المرشد التام، بل قد يكون هناك مرشد فقط ونكتفي به، فإذا رزقنا الله بالمرشد الكامل كان أولىٰ.



(باب)
أركان الطريق إلى الله:
الشيخ، والمريد، والمنهج، وأن الباطن والظاهر وجهان لشيء واحد لا يتعارضان أبدًا

لما رأى الصوفية أن هناك: شيخًا، ومريدًا، وطريقًا، أسموا هذا بأركان الطريق إلىٰ الله (الشيخ، والمريد، والطريق) وكتبوا في آداب الشيخ كيف يكون؟ فقالوا: لابد عليه أن يكون مدركًا للحقيقة، فتكلموا علىٰ أن هذا الكون له ظاهر وله باطن، له مدرك يشترك فيه كل أحد، وله حقيقة لا يعرفها إلا الخواص، فقسّموا الناس إلىٰ: عوام، وخواص، وخواص الخواص، وقسّموا الأمر كله إلىٰ: ظاهرٍ، وباطنٍ، واكتشفوا أن الباطن لا يعارض الظاهر، ولا يكر عليه بالبطلان، وهذا من رحمة الله بنا، وبعض القاصرين ظن أن الباطن يعارض الظاهر، وأنه يكر عليه بالبطلان، فوصفهم أئمة الصوفية بكل صفة خسيسة، بالجهل مرة، وبالفسق مرة، وبالزندقة مرة، وبالكفر مرة، وهكذا؛ لأن الصحيح أن الباطن لا يخالف الظاهر، بل هو يؤيده، ويحققه، ويرسِّخُ مقاصده، ويحقق غاياته.

فهم قد رأوا الظاهر مثل دوران الأرض، وأنها تدور حول نفسها، وتدور حول الشمس، إلا أن الظاهر للعيان هو أن الشمس هي التي تتحرك، والظاهر في الماء مثلا أن الذي أمامنا هو ماء، ثم عند الحقيقة تبين أنه مكون من



غازين: من هيدروجين وأوكسجين، أحدهما يشتعل، والآخر يساعد على الاشتعال، فوصلنا إلىٰ شيء عجيب: هذا الذي أمامنا ماء أو نار؟!!، الظاهر أنه ماء، والحقيقة أنه نار، بعض القاصرين فهموا أن هذا تعارض، والصوفية لم يفهموا هذا، بل فهموا أن الشرع الشريف إنما جاء لضبط الظاهر والباطن معًا، وأن الظاهر مهم، وأن تاركه كافر، ولكن هذا لا يمنع أن تكون هناك حقيقة، وأن هذه الحقيقة نتعمق فيها، ونكتشفها شيئًا فشيئًا، وكلها لا تكر على الظاهر بالبطلان، فلو جاء واحد وقال: أنا لا أتوضأ. فقلنا له: لماذا لا تتوضأ؟! فأشار إلى الماء وقال: لأن هذا نار، وأنا أخشىٰ علىٰ جلدي أن يحترق. فإننا نعده من المجانين؛ لأن هذا ماء وليس نارًا، وإن كان هو من نار، ولو قال: إنني أريد أن أبيع هذا الإنسان ، وأشار إلىٰ إنسان حر، فقلنا له: لماذا؟! قال: لأن المشتري يحتاج إلىٰ شيء من التراب، وهذا الإنسان مكون من تراب في حقيقته، قلنا له: أنت مجنون، وهذا ليس ترابًا، وكلامك يخالف الكتاب والسنة؛ لأنه هو من تراب، وليس هو ترابًا، ولا يجوز لك أن تبيع الحر، ولا هذا المشتري سينتفع بهذا التراب، وإن كان هو من تراب، ويؤول إلى التراب، ونشأ من التراب، إلا أن هذه حقيقة وليست ظاهرًا.

ظن بعض القاصرين أن السلوك هو أن يذهب إلىٰ الحقيقة ويترك الشريعة! فتكلم الصوفية بعبارة جامعة طيبة فقالوا: (من تشرّع ولم يتحقق فقد تفسّق)؛ لأنه ينكر علمًا، وينكر حقيقة، وينكر جوهر الدين، وينكر ما من أجله خلق الله السموات والأرض، (ومن تحقّق ولم يتشرّع فقد تزندق)؛ لأن الذي يقول: إن هذا نار ،وهو يقصد الماء، فهو كذاب زنديق، أراد بذلك أن يخرج على الشرع الشريف.



لم يفهم كثير من الناس هذه الحقيقة فعادوا التصوف، واعتبروا أن الصوفية يدعون إلىٰ الزندقة، والأمر ليس كذلك؛ لأن الصوفية يدعون إلىٰ الشريعة المؤيَّدة بالحقيقة، يَدْعُون إلىٰ أن تكون هذه الحقيقة مما يزيدنا أدبًا مع الله، لا مما يبطل عبادتنا مع الله، الصوفية يفهمون أن هذا جزء من الطريق إلىٰ الله.







(باب)
السير إلى الله يزول معه التكلُّف ولكنه لا يسقط التكليف أبدًا

الصوفية -وهم يسيرون في الطريق إلىٰ الله- وصلوا إلىٰ مرحلة أنهم لم تعد هناك مشقة في أفعالهم، في بداية سلوكهم كان أحدهم يقوم الليل تعبدًا وذكرًا فيجد مشقة، وتغالبه نفسه، ويريد أن ينام، ويذهب ليتوضأ في الشتاء فتؤذيه لسعة البرد فلا يريد أن يتوضأ، ويقاوم نفسه، ويصبر، ويتوضأ، ثم هو يجد نفسه بعد ذلك يتلذذ بذلك القيام، وتطيب له تلك اللسعة التي كانت تؤذيه من قبل، ويسعىٰ إليها، وكأنه يسعىٰ إلىٰ شيء محبب إلىٰ نفسه، فزال عنه التكلف الذي هو المشقة والاستثقال للعبادة، فعبَّر عن ذلك وقال: أنا الآن لا أجد التكلف لله؛ لأنه إنما يفعل ذلك حبًا وشوقًا لله، ففهم القاصرون من عبارة الأكابر أنهم لا يُصَلُّون، ولا يتوضئون!!

فانظر الآن إلىٰ الفارق الضخم ما بين الأمرين، شخص يعبد الله إلىٰ أن يصل إلىٰ أن تصير عبادته طبعًا يقصد فيه الله تعالىٰ لذاته، وحبه فيه سبحانه وتعالىٰ يدفعه إلىٰ زوال المشقة من أفعاله، فأين هذا من تلك الدعوة الخبيثة التي يتهمون بها الصوفية من أنهم قد أسقطوا التكليف؟!!

الشيخ يقول: إن المشقة قد زالت، ولا يقول: إن الصلاة قد زالت، إنما يقول: أنا أصلي ولا أشعر بأي نوع من أنواع التعب، ولا الملل، ولا السَّآمة،



والنبي ﷺ يقول: «فَإِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»[1].

فالسالك الصادق يصل إلىٰ حال لا يمل معه، بل يجد أنه كلما صَلَّىٰ عَلا قلبه مع الله تعالىٰ، ورجاه، ورغب فيما عنده، ويمتلئ قلبه بمعان شريفة، مغايرة للمشقة والتعب وغير ذلك مما يجاهده عوام الناس.



(١) رواه البخاري في صحيحه: (١/٣٨٦)، ومسلم في صحيحه: (١/٥٤٠)، وابن حبان في صحيحه: (٢/٦٧)، وابن خزيمة في صحيحه: (٣/٦١)، وأبو داود في سننه: (٢/٤٨) كلهم من حديث عائشة ﵂، ورواه ابن ماجه في سننه: (٢/١٤١٧)، والطبراني في المعجم الأوسط: (٤/١٠٧) من حديث جابر.



(باب)
من قواعد الطريق إلى الله: أن العبرة بمن صَدَق ،وليست بمن سَبَقَ

الصوفية وهم يسعون في هذا الطريق وجدوا أنه قد يفتح علىٰ المريد في لحظة بما لا يفتح علىٰ الآخر، فقالوا: (إن العبرة بمن صدق، وليست العبرة بمن سبق)، وقالوا: (قد تسبق العرجاء)، يشيرون إلىٰ مثل مشهور عند العرب، معناه أن الشاة العرجاء قد تسبق الشاة التي ليست بعرجاء، لأحوال وظروف تتوفر للأولىٰ ولا تتوفر للثانية، فأشار أهل السلوك بهذا المثل إلىٰ أن اللاحق المتأخر الذي تقاعد زمنًا عن سلوك الطريق لعله أن تنهض همته، فيُقْبِل علىٰ الله بهمّة، يَسْبِق بها من سار قبله، فلعل الله أخَّره ليقدمه، أي أن الله ﷻ أخَّره زمانا، وجعله في آخر السالكين لحكمة، حتىٰ يكون إمامهم وسابقهم.

واستأنسوا لذلك بأن النبي ﷺ كان آخر الأنبياء ، فكان إمامهم، وهذا المعنىٰ مهم جدًا في تجديد الهمّةِ، وإخراج أهل المعصية من حال الحرج، والشعور المذل بالإثم، مما يحبط العبد، ويقطعه عن مولاه، فإذا علم أن الصدق في السلوك إلىٰ الحق يطوي له المسافات، ولربما جاوز بها من سبقه في الطريق انبعثت همته، وتجدد نشاطه، وانتعش أمله، وأقبل علىٰ الله تعالىٰ من جديد.

إذن كل الساعين والسائرين في هذا الطريق إنما يريدون الله ﷻ، فالله هو مقصود الكل، وأن هدف هذا الطريق هو أن نتعلم الأدب مع الله، وأن الأدب مع الله إنما يكون بـ : التوبة، وبالتوكل، وبالحب في الله، والبغض في الله،



وبعبادة الله، وبالاستعانة بالله، وبالثقة بما في يد الله.. إلىٰ غير ذلك مما فصَّلناه ونفصله -إن شاء الله تعالىٰ- شيئًا فشيئًا، حتىٰ نتعلَّم الأدب مع الله.

وأن هذا الشيخ الذي يتصدر للتربية ينبغي أن يتصف بصفات، وأن يتخلق بأخلاق، وتلك الأخلاق إنما هي وراثة محمدية عن سيدنا رسول الله ﷺ، حيث يتشبه به، ويتخلّق بأخلاقه، ويحاول أن يتغيّاها، وأن يجعل رسول الله ﷺ أسوته الحسنة، وقد تكلمنا في شيء من صفات الشيخ، والآن نذكر شيئًا من صفات الطريق.

وقبل ذلك نقول: يجب علينا أن نحفظ هذه الأشياء؛ لأن هذه هي القواعد التي لخصوا بها حقائق الأمور، ولخصوا بها تجربة الساعين إلىٰ الله، وهذه الحقائق هي ملخص الشرع الشريف، حيث أخذوا لب ما أمر به الله ورسوله، مع تجربتهم الروحية التي هي التطبيق الإنساني الحي للأمر الشرعي، وجعلوا تجربتهم في إطار ما أمر الله ورسوله، وشبّهوا الطريق إلىٰ الله بالطريق الحسي الذي يسير فيه الإنسان، وهناك علىٰ جانبي الطريق فتن، وهي عبارة عن شهوات الدنيا وشواغلها، وهي عبارة أيضًا عما يُفتح للإنسان في طريقه إلىٰ الله ﷻ من خير، والإنسان يسأل نفسه: هل الغاية هي أن يلتذ بهذا الطريق؟!! أو أن الغاية هي أن يعبد الله ﷻ وحده، فإذا ما وجد الإنسان لذة أو حالة فلا ينبغي عليه أن يلتفت إليها، بل عليه أن يستمر في سعيه، وألا يلتفت إلىٰ هذه اللذة، ولا إلىٰ هذا الفتح، ولا إلىٰ هذا الكشف، ولا إلىٰ أي شاغل عن الله ﷻ.





(باب)
بيان معنى السير إلى الله ،وبيان معنى التخلّي والتحلّي والتجلّي

الإنسان يسير في طريق الله، لكن ما معنىٰ: (السير في طريق الله)؟؟ معناه أنه يبدأ بالتوبة، وما معنىٰ التوبة؟ معناها أن ينخلع من المعاصي، وأن يعاهد نفسه علىٰ أن يترك المعاصي، وأن يعطل ملك السيئات، أي يجعل ملك السيئات لا يكتب عليه شيئًا.

هذا الانخلاع له درجات: أولها انخلاع من المعصية، المعصية هي التي يقول عنها الشَّرع: إن هذا حرام، فالإنسان قرَّر مع نفسه ألا يفعل هذا الحرام.

هناك توبة أخرى وهي: الانخلاع من كل ما يشغل البال أو القلب عن الله، من ولد، ومن مال، ومن حب للأكوان، وللسلطة، وللجاه، وللشهوات، الإنسان هنا لم يرتكب حرامًا لكي يتوب منه، فهو قد تركه، لكنه الآن يتوب من شيء آخر، يتوب من الانشغال عن الله، وكأن الانشغال عن الله -وهو أمر يقع فيه جُلُّ البشر- معصية، لا.. هو ليس معصية، لكن كأنه معصية، وهو لعلو همته يعتبره في حقه معصية، فيخلّي قلبه من شواغل الدنيا ومشاغلها.

(**يخلّي قلبه**): هذه كلمة وقف عندها السادةُ الصوفية كثيرًا، وقفوا عند التخلية من القبيح، ويأتي بعدها عندهم معنىٰ آخر، وهو أن: (يحلّي قلبه) بكل صحيح، وهذه هي التحلية.

إذن فهناك مرحلتان وهما: (التخلية، والتحلية)، التخلية تفريغ القلب من



الشواغل والمشاغل، والتحلية هي تجميل القلب بهذه الصفات العالية من التوكل، ومن الحب في الله، ومن الاعتماد علىٰ الله، ومن الثقة بما في يد الله... إلخ.

والسالك إلىٰ الله لا يزال إلىٰ الآن في المرحلة الأولىٰ من الطريق، ومن التوبة، فإنه خلَّىٰ قلبه من القبيح، وحلَّىٰ قلبه بالصحيح، لكن تأتي توبة أخرىٰ بعد ذلك، في مرحلة ثانية، يتشوق فيها قلب هذا التقي النقي، الذي خلىٰ قلبه من الشواغل والمشاغل؛ وخلىٰ نفسه وجوارحه من المعصية، ثم خلىٰ قلبه من الشوائب، ثم حلىٰ قلبه بتلك المعاني الفائقة الرائقة، وهو في كل ذلك يريد من الله ﷻ أن يتجلىٰ عليه.

هذا التجلي يأتي بعد التخلي والتحلي، فما معنىٰ التجلي؟ معناه -كما قالت السادة الصوفية-: التخلُّق بأخلاق الله؛ فالله تعالىٰ رحيم، فلابد من أن نكون رحماء، والله تعالىٰ رءوف، فلابد من أن نكون كذلك، والله تعالىٰ غفور فلابد أن نكون متسامحين، نغفر للآخرين، ويصبح الإنسان في رضا عن الله، عنده تسليم تام بقدر الله، هذا الرضا وهذا التسليم يدخل قلبه علىٰ ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: هي مرحلة يسلم فيها بأمر الله، ويقاوم نفسه من الاعتراض، ومن الحزن؛ فهو يحزن لكنه يمنع نفسه من أن يعترض علىٰ أمر الله، وهو أيضًا يبكي ليل نهار علىٰ فقدان الولد مثلا، لكنه ساكن القلب إلىٰ حكمة الله تعالىٰ.

والمرحلة الثانية: لا يحزن، فلو مات له ابنٌ أو أصابته مصيبة فإنه يضحك، والسبب اليقين في لطف الله وحكمته.



المرحلة الثالثة: يبكي، لأنه يستحضر في نفسه أن الله قد أفقده هذا العزيز لديه الآن من أجل أن يبكي، فهو لا يبكي حزنًا إنما هو يبكي لله، وهذا هو الذي كان عليه مقام النبوة وأكابر الأولياء؛ فلما فقد النبيُّ ﷺ ابنَه إبراهيمَ بكىٰ[1].

وفي حديث آخر أنه قد أَرْسَلَت ابْنَةُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا. فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: «**إِنَّ للهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّبِيُّ وهو في النزع. فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ. فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: «**هَذِهِ رَحْمَةٌ، جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[2].

والنبي ﷺ يبكي علىٰ إبراهيم، ولكنه يبكي لأن الله قد قدر لمن أصيب بمصيبة أن يبكي؛ فالأول يبكي حزنًا، والثاني يضحك رضًا، والثالث يبكي مرة ثانية قهرًا تحت سلطان الله سبحانه وتعالىٰ، واستجابة لمقتضىٰ ما أجراه الحق في هذا الوقت المخصوص من أحوال، وكأن الله أرادني الآن أن أحزن فأنا أحزن لذلك.

---

(١) الحديث في بكائه ﷺ لموت ولده سيدنا إبراهيم رواه البخاري في صحيحه: (١/٤٣٩)، وابن حبان في صحيحه: (٧/١٦٢)، والحاكم في المستدرك: (٤/٤٣)، وأبوداود في سننه: (٣/١٩٣) وغيرهم كثير.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (١/٤٣١)، ومسلم في صحيحه: (٢/٦٣٥)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ: (٤/٦٥).



فالتوبة إذن أول الطريق؛ وهي مراحل: أولها: توبة من المعصية، ثم توبة من الأكوان بالتخلية والتحلية، ثم بعد ذلك توبة من كل شيء سوىٰ الله، ومن تاب عما سوىٰ الله، تجلىٰ الله عليه بصفاته، فكان عبدًا ربانيًا، يدعو الله ويقول: يا رب، فيستجيب الله له، وكان عبدًا ربانيًا في رضاه بالله، وفي تسليمه لأمر الله، لا مزيد علىٰ ذلك عليه، ويكون بذلك قد فعل هذا الشيء الذي يسمىٰ التوبة، فكيف السبيل إذن؟ قالوا: التوبة هذه مرحلة من عشر مراحل، نعالج كل مرحلة منها، نحن الآن في أول الطريق إلىٰ الله وهو: التوبة.

فما الذي يحدث لي أثناء هذه التوبة؟

أولًا: أن أتوب عن المعاصي.

ثانيًا: التحلية والتخلية.

ثالثًا: مرحلة التجلي والرضا التام تحت قهر الله.



(باب)
بيان أن السير إلى الله فيه تعامل مع الْمُلْك والْمَلَكُوت والأنوار والأسرار

وهذه الخطوة هي الأولىٰ في الطريق، وهذه المرحلة الأولىٰ أسير فيها إلىٰ الله. فما الذي يحدث؟

لدينا أربعة أشياء، لابد من أن نفهمها حتىٰ نستوعب هذا الذي قلناه وهي: الأسرار، والأنوار، والملك، والملكوت.

أما الْمُلْك: فهو الذي نشاهده في العالم، وهو كل ما كان قابلًا للمشاهدة. وهو هذا العالم الذي نحيا فيه.

وأما الملكوت: فهو الملأ الأعلىٰ، حيث الملائكة، تعبد الله تعالىٰ، وترتل له كلامه، وتسجد وتركع لعظمته، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

وأما الأسرار: فهي كل جديد لم يكتشفه الإنسان، سواء اكتشفه الآخرون أو لا.

وأما الأنوار: فهي هذا الذي يضيئ الظلام، حسيًا كان أو معنويًا، ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]، والنبي ﷺ أرسله الله رحمة، ووصفه فقال: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[3].

---

(١) سورة التحريم، آية: [٦].
(٢) سورة النور، آية: [٣٥].
(٣) سورة الأحزاب، آية: [٤٦].



والإنسان وهو في طريقه إلىٰ الله تعالىٰ تنفتح له بعض أسرار المُلْك، ومن أسرار المُلْك: خصائص الأعشاب والنباتات، ومن أسرار المُلْك قواعد البنيان، ومن أسرار المُلْك قواعد الحكم، والاجتماع البشري، وهذه الأسرار يدركها المسلم والكافر، وتنكشف شيئًا فشيئًا للبشر؛ فعرف الناس -وهم علىٰ الكفر- كيف يبنون الأهرام، وكيف يحتفظون بالموتىٰ هذه الآجال البعيدة، وعرفوا خصائص الأدوية، سواء كانت من الطب الطبعي أو كانت من الطب الصناعي، وعرفوا أشياء كثيرة بالمجهر و(التليسكوب) و(الميكروسكوب)، وما زال ما لا يعرفونه أكثر مما يعرفونه.

والإنسان يكتشف كل يوم ملايين المعلومات الجديدة ولا ينتهي، وكلما اكتشف معلومة جاءت مع المعلومة أسئلة، نحوًا من أربعين أو خمسين سؤالًا، أي أنهم إذا اكتشفوا في اليوم مليون معلومة، فهناك أربعون مليون سؤالًا قد جَدَّت، وهي تحتاج إلىٰ إجابة، وكل هذا يتعلق بأسرار الملك.

ولكن الإنسان أيضًا في طريقه إلىٰ الله، يحدث له انكشاف لهذه الأسرار، وهو الذي يسمىٰ بالكشف؛ فمثلًا بينما هو قاعد في الخلوة، أو في الصلاة، أو وهو يمشي في طريقه تفتح عليه مسألة كونية؛ فيعلم ما قد يعلمه الطبيب، ويعلم ما قد يعلمه الكيميائي - إما تمامًا، وإما في بعض الجوانب، فيعلم من قوانين الكون، أو بعضه، أو جزءٍ منه، وهناك من الناس من إذا فتح عليه هذا السر وكشف له يستديم معه، وهناك من يُغلق عليه مرة ثانية فينساه؛ فيكشف له لمدة خمس دقائق وتغلق بعد ذلك، وبعد سنين، يسمع الطبيب يردد نفس الذي فتح عليه في الابتداء، يقول: نعم أنا أعلم ولكني نسيته.



(باب)
بيان معنى الكشف والفتح
أنهما لا عبرة بهما إلا إذا ازداد بهما العبد أدبًا مع الله

والكشف والفتح معناهما: الإدراك، ومعرفة الأسرار، فالأسرار الملكية هذا شيء تافه، لا تعلق به همم الأكابر، ولنفرض أن الولي قد فتح عليه بكل أسرار أهل الأرض، وبكل علوم أهل الأرض، حتى عرف ذلك كله وأحاط به، فما الذي يستفيده من هذا؟ إذا لم يستفد بهذا أدبًا مع الله فليس بشيء، ويكون هو والكافر سيان؛ لأن الكافر يعلم كل هذا، فإذا لم تكن هذه المعلومات تعلمه كيف يتأدب مع الله فهذا علم لا ينفع، والجهل به لا يضر، فنحن مثلًا فئة معينة، لنا تخصصات معينة، ولا نعرف الطب ولا الهندسة ولا خلافه، فما الذي ضرّنا؟ لا شيء؛ لأن غيري قام بها وتعلمها، ولكل واحد تخصصه، أما هذا الفتح أو الكشف إذا زاده أدبًا مع الله، كان هذا هو المقصود، وكان هذا هو المتبع.

بعض الناس -والعياذ بالله- لم يكن إخلاصهم تامًا، فعندما يُكشف له شيء من هذا يبدأ في التلاعب، وليس في السير إلى طريق الله، فيغتر بنفسه، ويتعالى على الناس، ويستغل ما عرفه من كشف للأسرار في تحصيل الدنيا، مالًا، وجاهًا، وسمعة، وشهوات، أو أي شيء آخر، فإن هو فعل ذلك فقد التفت عن طريق الله. هذا الشيء يحدث أثناء السير في أمور المعاش، فكأنني مررت بـ (فاترينة) فوقفت أمامها، ودخلت المحل، وتركت السير لنهاية الطريق، فدخولي هذا المحل يعطلني، ويمنع من الوصول.



إذًا الفتح أو الكشف يكون أولًا عن أسرار الملك، فإن انشغلت بأسرار الملك وتحصيلها عن الله فقد ضيعت نفسك ، في حين أن الناس جميعًا سيقولون: إنني ولي من أولياء الله الصالحين؛ لأنني أعلم كل هذه الأسرار، والأمر ليس كذلك؛ فالأمر أمر القلب، القلب الذي قد تخلىٰ عن القبيح وتحلىٰ بالصحيح، فإن وقفت عند إدراك أسرار الملك فتلك مصيبة؛ لأنه قد انكشف بذلك أنه لم يكن الله هو المقصود، وإنما تحصيل شيء من الدنيا.

وهناك أسرار أعمق من أسرار الملك، وهي أسرار الملكوت، إذ تنكشف أثناء الطريق والسير إلىٰ الله -جل شأنه-، فإذا انكشفت أسرار الملكوت سواء كان سرًا واحدًا أو كان (مليونا) من الأسرار فإن ذلك سيان، وننظر: هل زادته أدبًا مع الله ورضًا وتسليمًا لأمره -تعالىٰ- ؟ أو أنها زادته طغيانًا، وتحصيلًا للدنيا، وانشغالًا بهذه المعرفة؟ فإن زادته في طريق الله أدبًا كانت هذه هي المقصودة، وإذا حصّل بها الدنيا وحطامها فإنه يخرج عن طريق الله ويضل ولا يصل، وهذا معنىٰ قولهم: (ملتفت لا يصل)؛ لأنه انشغل بالأسرار التي انكشفت من عالم الملك أو من عالم الملكوت.

كذلك هناك نوع آخر من الانشغال أخفىٰ وأدق من هذا، وهو الانشغال بالأسرار، أو الانشغال بالأنوار، فالعابد يعبد ربه، فيمتلئ قلبه نورًا، وهو جالس في الخلوة، وهي مظلمة ليس فيها كهرباء، فإذ بها تضيء، فيجد لذة في قلبه، ويجد نورًا في قلبه، وكل هذا من أنوار الملك، وهذا يحدث للمسلم وللكافر، الرهبان في الكنائس يحصل لهم هذا، والبوذيون والهندوس يحصل لهم هذا؛ يحصل لهم من أنوار الملك، فإن انشغل بها السالك إلىٰ الله عن الله كأن تكبّر، أو فرح بها، أو استغلّها، أو عَبَدَ الله لتحصيلها، بأن يذكر الله تعالىٰ وقلبه ملتفت



إلىٰ أن ينور اليوم، مثلما تنوّر بالأمس فهذا لعب؛ لأنه قد توجه إلىٰ الصوارف دون الله تعالىٰ، وانشغل والتفت، وملتفت لا يصل.

وأعمق من هذا: ما كان من أنوار الملكوت، لأنه ينكشف له الملأ الأعلىٰ؛ فلو انشغل به عن الله فإنه يكون غير مؤدب ولا يصل.

فينبغي علىٰ العابد أن يراعي نفسه وهو في طريقه إلىٰ الله، ولا ينشغل عنه ﷻ بانكشاف أسرار الملك، ولا أسرار الملكوت، ولا ينشغل بأنوار الملك، ولا بأنوار الملكوت، بل إن ذلك من تلبيس إبليس، يحاول أن يصده عن الله، وأن يشوش عليه أمره، وأن يجعل عبادته لتحصيل لذة العبادة وليس لرضا الله، فنحن نعبد الله حصلنا لذة أو لم نحصل، كُشفت لنا أسرارٌ أو لم تنكشف، غرقنا في الأنوار أو لم نغرق، أو لم تأتنا أنوار بالمرة، لأن المقصود هو الله.





(باب)
عودة إلى بيان معنى أن: ملتفتًا في طريق الله لا يصل

هذه واحدة من القواعد الأساسية، التي يتكلمون عنها في طريق الله، (ملتفت في طريق الله لا يصل)، ومعنىٰ (الالتفات) الاشتغال بغير الله، ومعنىٰ هذا أنه لو حدث لنا انكشاف للأسرار، أو فيوضات من الأنوار، فإننا نحمد الله ونستمر، ومن هنا كان أولياء الله يقولون: إذا ما كُشف لنا شيء دعونا الله أن يسده عنا. أي: نحن لا نريده، وقالوا: إن الكشف يحدث لمن كان في أول الطريق، فمن كان في وسطه أو في نهايته لا يحدث له كشف؛ أي أنه كلما ترقىٰ الإنسان في عبوديته لله يغلق عنه هذا الكشف، ويعود مرة أخرىٰ كشخص عادي، ليس معه هذه الخاصية، ولا هو يريدها؛ لأن المقصود هو إخلاص العبادة لله، وفي الحديث: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»[1].

أما من أراد أن يدخل الدنيا، أو أن يستلذ بنفسه فيها، فهذه بدعة، وشهوة شيطانية، وليست منحة رحمانية.

وعندما سأل أحدُهم أبا يزيد البسطامي: مالي أعبد الله وأجتهد في العبادة ولا أجد لذة في قلبي؟ قال له: لأنك عبدت العبادة، اعبد الله تجد لذة العبادة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١/٣، برقم (١) باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.



وهذا معنىٰ دقيق جدًا؛ فمثلًا وأنا قائم أصلي الليل، أقوم من أجل أن أقول لنفسي في الصباح: أنا قمت الليل، أما ولي الله فهو قائم شوقًا لله، وفارق كبير ودقيق جدًا بين الحالين.

الأول يقول لنفسه: أنا قائم سرًا، لا أحد يراني، ولم يعلم بقيامي لا أهلي، ولا ولدي، ولا أحد، وأنا أخفي عبادتي عنهم، ولكنه يخفيها وهو في داخل قلبه يقول لنفسه: أحسنت إذ قمت الليل، قم كل يوم هكذا.

أما الثاني فهو إنما قام حبًا لله، لا في ذهنه أن أحدًا يراه أو لا يراه، أو أن أحدًا يقول عنه أو لا يقول، بل لا علاقة له بهذه الأشياء مطلقًا، ولا شيء من ذلك يَرِدُ علىٰ ذهنه؛ لأنه ليس في قلبه غير الله، فالفارق بينهما كبير، فأبو يزيد يقول: (عبدتم العبادة فلم تجدوا لذتها، اعبد الله تجد لذة العبادة).

وقد ورد عن عبد القادر الجيلاني، أنه كان جالسًا في خلوته المظلمة، فأضاءت نورًا من أنوار الملك قال: فسمعت صوتًا ما ألذه، قال: يا عبد القادر، فألقي في روعه أن الله يخاطبه، قال: لبيك، قال: إنّا أحببناك، قال: فذبت كما يذاب الملح في الطعام أو في الماء، قال: وقربناك إلينا. قال: فانهمرت الدموع من عيني، قال: وأحللنا لك الحرام. فقال الشيخ عبد القادر: اخسأ يا لعين، قال له ذلك مباشرة، فهو جاهز، لم ينتظر حتىٰ يفكر: هل يمكن أو لا؟ فما علاقة هذا بالله وعبادته؟ هو عرف، عرف الحقائق من أول دخوله الطريق، إذ دخله وهو علىٰ علم، قال: فانطفأ النور، وسمعت صوتًا علىٰ أقبح ما يكون الصوت حشرجةً وقبحًا يقول له: (أخرجت سبعين عابدًا من ديوان العبودية بها يا عبد القادر، ولكن علمك نَجاك)، يعني أن هناك سبعين عابدًا حصل لهم هذا الأمر فقالوا: لبيك يا ربي، انتهىٰ الأمر فلن نصلي، ثم يأتي إليه مرة ثانية فيفعل



معه نفس الأمر، فيقول له: أنا طوع أمرك، فيخرج من طريق الله إلىٰ طريق الشيطان.

فهؤلاء الذين عرفوا الله، وأقبلوا عليه وحده، هم أهل الله، وهذه تجربتهم، وقد اتضحت أهميتها، وأهمية الأخذ بها، لأنني لو تركت تراثهم وتعاليمهم وبدأت أجرب من جديد، ولا أبالي بهذه الأحكام ولا بهذه التجربة، وأقول لنفسي كما قال هؤلاء العُبّاد السبعون: هذا يمكن؛ حيث إنني رأيت نورًا ولذة ما بعدها لذة، وحالة ما بعدها حالة.

فنحن نقول: لكنه أمر بالمنكر ونهىٰ عن المعروف، وكل هذه الخرافات أنت بعون الله أقوىٰ منها، وستكون تحت سيطرتك إن صدقت، ولا تسيطر هي علي، فهذه التجربة هي التي جعلتنا نستمع لأولياء الله، نستمع لكلماتهم ونسترشدهم، ونعرف منهم: ما معنىٰ الطريق؟ وما معنىٰ الالتفات؟ وما معنىٰ الكشف؟ وما معنىٰ التحلية؟ وما معنىٰ التخلية؟ وما معنىٰ التجلي؟ وما معنىٰ الوصول؟ وما معنىٰ التوبة؟ وما معنىٰ الرضا؟ وما معنىٰ التسليم؟ وما معنىٰ التوكل؟ وما معنىٰ الذكر؟ وما معنىٰ العبادة؟ وما معنىٰ الاستعانة؟.. إلخ، وما شروط كل واحدة؟ وما الذي يحدث عندما نفعل كذا وكذا وكذا؟ وكيف أعيش هذه المعاني، وكيف أطبق أوامر الله تعالىٰ علىٰ نحو عملي صحيح؟ وذلك لأنهم التزموا بالكتاب، واستنوا بسنة سيد الأنام؛ ولأنهم جربّوا هذا علىٰ فترات واسعة طويلة، وعايشوا الصادقين أهل البصيرة والمعرفة، الذين أرشدوهم وعرفوهم مزالق الطريق، وعلموهم كيف يسلكون إلىٰ الله علىٰ بصيرة.



هذا هو طريق الله بدأنا فيه بالتوبة، والهَروي جعلها عشر مراحل، وبَيَّن أنها في نطاق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] وألَّف كتابًا أسماه: (منازل السائرين، بين إياك نعبد وإياك نستعين)، وشَرَحَهُ ابن القيم في كتاب: (مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين).



(١) سورة الفاتحة، آية: [٥].



(باب)
بيان مراتب النفس البشرية وكيفية التعامل مع كل مرتبة

مما تكلم فيه الصوفية: (النفس البشرية)، وأنها تمر بسبع مراحل:

المرحلة الأولى: هي النفس الأمَّارة بالسوء، **والثانية:** هي النفس اللوَّامة، التي تلوم صاحبها علىٰ فعل المعصية، أو علىٰ تخلفه عن الكمال، **والثالثة:** النفس الملهمة، **والرابعة:** النفس الراضية، **والخامسة:** النفس المرضية، **والسادسة:** النفس المطمئنة، **والسابعة:** النفس الكاملة.

وقالوا: إن هذا الطريق الذي بين العابد وبين الله تعالىٰ، والذي يفضي في نهايته إلىٰ الله ﷻ، فيه سبعون ألف حجاب، وفي كل نَفْس منها عشرة آلاف حجاب، وأن كل نَفْس ينتقل منها الإنسان إلىٰ ما بعدها فإنه ينتقل باسم من أسمائه تعالىٰ يذكره، حتىٰ يصل إلىٰ تربية نَفْسه، وزوال حجبها، فيصل بعد ذلك إلىٰ مرتبة أخرىٰ من مراتب النفس، وأن كل نَفْس من هذه النفوس لها صفاتها، ولها اسم معين من أسماء الله، تذكره به، ولها خصائصها، ولها علاماتها، التي يستطيع السالك بموجبها أن ينتقل من نَفْس إلىٰ نَفْس، أي من مستوىٰ إلىٰ مستوىٰ، فينتقل بالتالي من ذكر إلىٰ ذكر، ثم بعد ذلك، وبعد نهاية هذه النفوس، والوصول إلىٰ النفس الكاملة يدخل في عبادة الله أبدًا؛ فالعبادة لا تنقطع.

وقد حذّروا في طريق الله من العقائد الفاسدة، ومن القول بسقوط التكليف كما رأينا، ومن القول بأن الله قد اتحد في العابد، ومن القول بأنه رأىٰ الملك علىٰ هيئته وسمعه، وحذروا من القول بأنه قد دخل الجنة وأكل



منها، وحذروا من القول بأن هذا الكون هو الله، فهذا كله باطل وفاسد وممنوع، وهكذا.

وحذروا من أمور في الطريق، وأمَرُوا بأمور، ووضّحوا، وبيّنوا، وهذا هو الذي سنأخذه شيئًا فشيئًا، ثم بعدما ننتهي من آداب الطريق ندخل في آداب الشيخ، وندخل بعد ذلك في آداب المريد، فتتم لنا بذلك أركان السير إلى الحق جل شأنه، وهي: الشيخ، والمريد، والطريق الذي يسير فيه المريد إلى الله ﷻ.

وقد تكلمنا عن طريق الله، وأن هذا الطريق يقصد فيه السالكُ الله ﷻ، فالله تعالى هو مقصود الكل، وأنه ينبغي على المريد وهو سائر في طريق الله ألا يلتفت عن يمينه ولا عن يساره أثناء هذا السير، حتى لا ينشغل عن الله، وقلنا: إن هذا الالتفات معناه: أن يُعجب الإنسان بنفسه، أو بعبادته، أو بذكره، أو بما يظهره الله على يديه وله، من انكشاف للأسرار، أو امتلاء بالأنوار، وقد تكلمنا عن المُلْك المشاهد، وعن الملكوت المغيب ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1] والله جل شأنه هو رب الملك والملكوت؛ فالشهادة هي الملك، والغيب هو الملكوت.

وتكلمنا عن الأسرار والأنوار، وأن الإنسان وهو يسير في طريق الله، عابدًا له بالصلاة، وبالذكر، وبالتلاوة، وبالإخلاص، وبالتخلي من كل قبيح، وبالتحلي بكل صحيح- تنكشف له بعض أسرار الدنيا، وتنكشف له بعض أسرار الغيب، ويمتلئ قلبه ببعض أنوار الدنيا، ويمتلئ قلبه ببعض أنوار الغيب، فعليه ألا يلتفت إلى كل ذلك، بل عليه دائمًا أن يستحضر عظمة مولاه، وأن يرجع دائمًا إلى ربه، وأن يعود دائمًا إلى الله، وأن يجعل الله هو مقصوده، فلا يتألم بلذة في قلبه قد زالت، ولا يفرح بلذة قد حلت، وإنما يفعل ذلك لله، لا لتحصيل لذة العبادة،

(١) سورة الأنعام، آية: [٧٣].



ولا لتحصيل أنوار، ولا لكشف أسرار، ولا لحدوث كرامات.

فتكلمنا عن كل ذلك، وقلنا: إن الله مقصود الكل، وقلنا: إن ملتفتًا لا يصل.. فماذا يفعل الإنسان في هذا الطريق؟

جاء جبريل عليه السلام يعلم الناس أمر دينهم، فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ لاَ يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلاَ يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ -يعني علىٰ هيئة المتأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ- وسأله: يارسول الله ما الإسلام؟ فأجابه، فقال: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ)[1]؛ لأن المفترض في السائل أنه يسأل ليتعلم، ولكن جبريل عليه السلام جاء يسأل ليُعَلِّم، وملخص ما قاله أن الإسلام هو إقامة الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت، هذه كأنها هي السمات التي ينبغي علينا أن نحصِّلها، الآنية التي ينبغي علينا أن نحصِّلها، حتىٰ يضع الله فيها أنواره، ويكشف من خلالها أسراره، ومن غير هذا لا يمكن أن نُحصِّل الأنوار الربانية، ولا أن تُكشف لنا الأسرار الصمدانية، فلابد من هذه الشريعة المطهرة تحققًا والتزامًا، في الظاهر والباطن.

فهذه الأشياء التي شرعها الله لنا هي التي توصلنا إليه، وهي الأساس، لا تسقط أبدًا، ولا تنتهي، والوصول إلىٰ الله لا يعني أبدًا أن نترك الآنية أو نكسرها، بل كان النبي ﷺ كلما زاد ربه في شرفه ومقداره يقوم الليل حتىٰ

---

(١) سبق تخريجه.



تتورم قدماه، ويقول: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[1] ﷺ.

فلا بد في الطريق أولًا من أن يستكمل السالك الإيمان، ولذلك في كثير من الأحيان نذهب إلىٰ المشايخ حتىٰ نأخذ الطريق، فيضحك الشيخ ويقول: أتمَّ إسلامَك أولًا.

فكيف نتم إسلامنا؟ الإسلام يتم بفعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات، فإذا ما استكملنا الإسلام وأصبح تامًا، فإننا نبدأ باستكمال الإيمان، فإذا أكملنا الإيمان وأصبح تامًا، فإننا ندخل في الطريق إلىٰ الله، فلا أدخل في الطريق وليست معي الأدوات، ولابد من هذه الأدوات؛ لأنه طريق طويل؛ ولأن طريق الله طريق طويل مع العمر، من المهد إلىٰ اللحد، ولذلك لابد من أن نستثمر هذه الوسيلة التي توصلنا إلىٰ الله ﷻ، نتوسل بها إليه، ونتوصل بها إليه، ونخلي بها القلب من كل قبيح من نحو: الحسد، والغل، والجهل، والركون إلىٰ الدنيا، والشرك بالله ولو كان خفيًا.

والرياء أيضا من الشرك، فلو صلىٰ من أجل الناس يرائيهم بها، فقد أفسد عبادته، هذا هو مضمون الشرك، والنفاق أيضا من الشرك، والخوف من غير الله أيضًا من الشرك الخفي، نعم أنا مسلم أصلي وأصوم وأعبد، ولكن ما زال قلبي متعلقًا بالدنيا، ومادام القلب يتعلق بالدنيا فلا يمكن أن يرىٰ لا أنوارًا ولا أسرارًا، ولا يمكن أن يتلذذ بعبادته، ولا يمكن أن يتقدم في طريق الله، فلا بد من تخلية القلب من كل صفة قبيحة، ولا بد من أن ننهض إلىٰ التوبة عن الدنيا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: (٢٣٧٥/٥) من حديث المغيرة بن شعبة، ومن حديث عائشة رضي الله عنها، ورواه مسلم في صحيحه: (٢١٧١/٤) كذلك، ورواه الضياء المقدسي في المختارة: (١٠١/٧) من حديث أنس، ورواه ابن خزيمة في صحيحه: (٢٠١/٢) من حديث أبي هريرة.



والتوبة كما قلنا درجات: توبة عن المعصية، وتوبة عن الالتفات عن الله، وتوبة عن الدنيا والأكوان؛ فتخيل قلب المؤمن وهو خال مما سوى الله، خال من الدنيا ولا تعلق له بها، فما معنى أنه لا يتعلق بها؟ معناه أنه: لا يفرح بالموجود، ولا يحزن على المفقود، أي أنه وصل إلى حالة تامة من التوكل على الله، ووصل إلى الرضا والتسليم، وإذا وصل القلب إلى هذه الدرجة من الرضا والتسليم، والتوكل على الله، وعدم التعلق بالدنيا، فإنه لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، ويشعر بحلاوة الذكر، ويشعر بحلاوة الإيمان، وإذا ما دخلت حلاوة الإيمان قلبًا فإنها لا تخرج منه أبدًا، قال الحق جل شأنه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ يعني وجود ضعف، كأنه يقول: لم يحدث بعد أن تحقق اتصافكم بالإيمان؛ لأنهم يؤمنون بعقولهم أن هناك إلهًا، وأن النبي ﷺ رسول، لكن قلوبهم لم تدخلها حلاوة الإيمان، ورسول الله ﷺ يقول: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[2].

والإنسان يصل إلى هذه الحالة عندما يكون قلبه متعلقًا بالله، فهذه الحالة التي يعيش فيها المؤمن حالة تجعله يتقدم شيئًا فشيئًا في طريق الله.

---

(١) سورة الحجرات، آية: [١٤].

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (١/١٤)، ومسلم في صحيحه: (١/٦٦)، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: (٢/١٣): (مَعْنَى حَلاَوَة الْإِيمَان: اِسْتِلْذَاذ الطَّاعَات، وَتَحَمُّل الْمَشَقَّات فِي رِضَا الله ﷻ، وَرَسُوله ﷺ، وَإِيثَار ذَلِكَ عَلَى عَرَض الدُّنْيَا، وَمَحَبَّة الْعَبْد رَبّه -سبحانه وتعالى- بِفِعْلِ طَاعَته، وَتَرْك مُخَالَفَته، وَكَذَلِكَ مَحَبَّة رَسُول الله ﷺ).



وعندما سُئِلَ ﷺ: ما الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، فانظر إلى الدقة! (كأنَّك) أي من شأنك أن تراه، فالكاف هنا يسمونها: (كاف التشبيه)، إذًا هذه ليست رؤية حقيقية، إنما هي رؤية تمثيلية، يعني: كأنك ترى، فهذا يشبه الرؤية لكنه ليس برؤية؛ لأن الله ﷻ لا يُرى في الدنيا بالأبصار، إنما تقبل عليه القلوب:

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُون * تَرَىٰ مَا لاَ يَرَاهُ النَّاظِرُونَ

فالعيون ليست هي العيون التي لها مقلة وطرف ومآق، بل العيون تكون في البصيرة، فتكون أعلى مما هي عليه في البصر، فقلوب العارفين لها عيون أي: بصيرة، وتوسم، ونظر بنور الله، فترى بذلك ما لا يراه البشر، الذين اعتادوا الرؤية الحسية بعيونهم هذه؛ لأن الله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1] فالإله لا يحيط به حد، ولا تنظر إليه مقلة.

وموسى كليم الله قال الله في شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾[2].

فهذا شيء فوق طاقة البشر، وفوق طاقة الأكوان، ولا يرى بالعيون المجردة هذه، ولذلك لما أخبر عن حال المؤمنين في الآخرة قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3] فذكر الوجه وليس العين.

---

(١) سورة الأنعام، آية: [١٠٣].
(٢) سورة الأعراف، آية: [١٤٣].
(٣) سورة القيامة، آية: [٢٢، ٢٣].



(اعبد الله كأنك تراه) يعني راقب نفسك المراقبة التامة المستمرة، لدرجة أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يراقب نفسه بالأنفاس، فلا يدخل نفس إلا وهو يتأمل، ويتدبر، ويستحضر عظمة الله، ولا يؤمل أن يخرج، أي أنه ينتظر الموت دائمًا، وبصفة مستمرة، ولا يخرج نفس ويأمل أن يدخل، فهل مثل هذا الإنسان تصدر منه المعصية؟! هل مثل هذا الاستحضار يصدر معه التقصير؟ هل مثل هذه الحالة يصدر منها الظلم؟ دائمًا سيكون مع الله، مع هذه الفكرة الدائمة، يقول: (اعبد الله كأنك تراه) ويعني بها مقام المراقبة.

ثم تأتي مرحلة أخرىٰ: (فإن لم تكن تراه فهو يراك) هذه مرتبة أقل من المرتبة الأولىٰ، فإنك لا تستطيع أن تكون دائم الذكر له علىٰ هذه المرتبة العالية، التي وصل إليها عمر رضي الله عنه وأولياء الله الصالحون رضي الله تعالىٰ عن الجميع، فاعلم أنه سبحانه يراك، ويعلم سرك ونجواك، فاتق وخف.

وقرأها بعض العارفين قراءة أخرىٰ فمعنىٰ: (اعبد الله كأنك تراه) أنك لا تنسىٰ أبدًا، وليستمر ذلك معك طوال يومك حتىٰ تصل إلىٰ درجة الفناء (فإن لم تكن) فإذا فنيت عن نفسك، وعرفت أن وجودك يحتاج إليه سبحانه وتعالى وهو لا يحتاج إليك، ووجدت أن الوجود الحقيقي إنما هو وجوده سبحانه وتعالى ووجودنا إنما هو وجود عارض، وحادث، وفانٍ، وله نهاية، (تراه) فإنك تصل إلىٰ مرحلة الرؤية، (فهو يراك) فالفضل من قبل ومن بعد لله وحده.

وهنا توصل أهل الله إلىٰ شيء في العقيدة مستقر بين جميع المسلمين، من أن الله هو: الحي القيوم، الأول والآخر، الظاهر والباطن، وأنه علىٰ كل شيء قدير.

وأسماء الله الحسنىٰ التي في القرآن مائة وثمانية وخمسون اسمًا، وأسماء



الله الحسنىٰ التي وردت في حديث النبي ﷺ من رواية أبي هريرة تسعة وتسعون اسمًا[1].

والسالك في الطريق إلىٰ الله كالسائر في الطريق الحسي، والنفس البشرية لها أحوال، والنفس كانت عند الله ﷻ فأنزلها في جسد الإنسان فحجبت بذلك الجسد، وهي تتشوف إلىٰ ربها، وفي تشوفها إلىٰ ربها حجبت عنه بحجب كثيرة، وقد نظر أهل الله فوجدوا أنها نحو من سبعين ألف حجاب، وقسموا النفس إلىٰ ثلاثة أقسام، وبعضهم قسمها إلىٰ سبعة، ووجدوا أن بين كل مرحلة ومرحلة أخرىٰ من الحجب ما يحجب الإنسان عن ربه، الذي هو المقصود للكل، والطريق أيضا قسّموه إلىٰ مراحل، وأول هذه النفوس هي النفس الأمارة بالسوء.

ويكتشف الإنسان وهو في طريقه إلىٰ الله أن هناك أربعة أسباب، تعوق سيره إلىٰ ربه سبحانه: أولها: نفسه، والثاني: الشيطان، والثالث: الهوىٰ، والرابع: الدنيا.

وهذه الأعداء إنما كانت أعداء لبني آدم، لأنها تحاول أن تصده عن سبيل الله، تحاول أن تجذبه إليها، وتحاول أن تجعله يخرج عن الصراط المستقيم، وعن الطريق القويم، الذي هو أقصر طريق يصل به العابد إلىٰ ربه، فهذه الأمور الأربعة تعكر علىٰ الإنسان صفو توجهه إلىٰ الله ﷻ، وفي الحقيقة إن أشد هذه الأعداء هي: النفس؛ لأن الدنيا قد تكون وقد لا تكون،

---

(١) الحديث في أن لله تعالىٰ تسعة وتسعين اسما هكذا علىٰ الإجمال رواه البخاري في صحيحه: (٢/٩٨١)، ومسلم في صحيحه: (٤/٢٠٦٣). أما تفصيل تلك الأسماء الكريمة وذكرها كاملة فقد رواه الترمذي في السنن: (٥/٥٣١)، وابن ماجه في السنن: (٢/١٢٦٩)، وقد أفرد الإمام الحافظ أبو نعيم جزء لطرق هذا الحديث، وانظر بحوثا موسعة في ذلك عند الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (١١/٢١٨-٢٣٠).



والشيطان يذهب ويجيء، والهوى يأتي ويذهب، ولكن النفس هي التي تصاحب الإنسان من الإدراك إلى الممات، ونحن نستطيع أن نميز سعيها، وحجابها، وشهوتها، عن باقي هذه الأعداء بالعود والتكرار، وهذا معنى قولهم -وهي قاعدة أيضًا-: (نفسك أعدى أعدائك).

فكيف نميّز بين وسوسة الشيطان ودعوة النفس؟ فقالوا: إن وسوسة الشيطان لا تدوم، ولا تعود، ولا تتكرر، ويحاول أن يوسوس في صدور الناس، فإذا لم يستجب الإنسان لهذه الوسوسة، وقاومها، وانشغل عنها فإنه لا يعود إليها مرة ثانية، ويذهب ليوسوس له في شيء آخر، فإذا وجد الإنسان من نفسه دعوة بالكسل عن الصلاة، أو عن الذكر، أو دعوة تدعوه إلى شيء مكروه أو محرم، ثم لم يجد في نفسه ذلك بعد هذا فإن ذلك من وسواس الشيطان، ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾[1] فهذه أذية الشيطان، وهو ضعيف، ولا سلطان له علينا، والله ﷻ أوْكَلَه، ولكنه أضعفه، وأبقاه، ولكنه خذله، والشيطان نستطيع أن نتقي شره من أقرب طريق، وبأبسط وسيلة، فالأذان يذهب الشيطان، والذِّكْر يذهب الشيطان، ونقرأ خواتيم سورة البقرة فتُذهب الشيطان وتُحصِّن المكان، ونقرأ آية الكرسي فإذ بنا نحتمي بها من الشيطان، ونذكر أذكار الصباح والمساء فإذ بنا نحصِّن أنفسنا من الشيطان، فالشيطان يُردُّ من أقرب طريق وبأبسط طريقة، وحياة الإنسان مع الذِّكْر، ومع القرآن، ومع العبادة، ومع الطهارة، ومع الأذان، ومع الصلاة، ومع الصيام تجعل الشيطان يفر ويذهب.

ولكن المشكلة هي مشكلة النفس، لأن النفس تحتاج إلى تربية، والنفس

(١) سورة الناس، آية: [٤، ٥].



تعيد علىٰ الإنسان دعوته إلىٰ التقصير، ودعوته إلىٰ الحرام، ودعوته إلىٰ المكروه مرة بعد أخرىٰ، فإذا ما قاومتها في أول مرة عادت تُلح عليّ في المرة الثانية، هذه هي النفس الأمَّارة، ولذلك استعملوا معها صيغة المبالغة، فهي: أمَّارة علىٰ وزن: فَعَّالة، وصيغة المبالغة فيها تكرار، وعود، ومبالغة، وفعل كثير، فالنفس لا تأمر مرة ثم تسكت، بل إنها تلح مرة بعد مرة.

وإذا ما وجدت إلحاحًا علىٰ شيء لفعل القبيح الذي أعرف أنه قبيح، والذي أعرف أن فيه تقصيرًا، أو فيه ذنبًا، ومعصيةً، فعليَّ أن أعرف أن ذلك من نفسي، وأنه ينبغي عليّ أن أربيها.

النفس الأمارة بالسوء هي أصل النفوس، عموم الناس تأمرهم نفوسهم بالسوء، فإذا ما ارتقينا إلىٰ ما بعدها أي إلىٰ: النفس اللوامة، وجدنا هناك نزاعًا بين الإنسان وبين نفسه، مرة تأمره بالمنكر، فيحاول أن لا يستجيب، ومرة يستجيب ثم يتوب ويرجع، ويدخل في منازعة، وفي أخذ ورد معها، إلىٰ أن تستقر علىٰ: النفس الملهمة، وهي الدرجة الثالثة من درجات النفس.

وبعضهم قال: إن هذا بداية الفناء، وأن النفوس ثلاثة: أمارة، ولوامة، وملهمة، وبعضهم قال: إننا لا نكتفي ببداية الكمال، بل علينا أن نترقىٰ فوق ذلك إلىٰ أن نصل إلىٰ: الراضية، والْمَرْضِيَّة، والمطمئنة، والكاملة.

وعلىٰ كل حال، فهذه المراحل تبدأ في عموم الناس، مسلمهم وكافرهم، تبدأ بالنفس الأمارة بالسوء، إلا أن هذه النفس الأمارة عندها استعداد لأن تتحول إلىٰ نفس لوامة، وهذه النفس اللوامة لديها استعداد لأن تتحول إلىٰ النفس الملهمة، فالاستعداد موجود، ولكن الشائع هو أن نفس الإنسان من قبيل النفس الأمارة بالسوء.



(باب)
في الْحُجُب التي تحْجِب النفس عن الله تعالى ، وأن الفكر والذِّكْرَ هما سبيل الخلاص من تلك الحجب

النفس الأمَّارة بالسوء محجوبة عن أنوار الله ﷻ بسبعين ألف حجاب، وكلما استطعنا أن نتخلىٰ، أو نتخلص، أو ننفي حجابًا من الحجب -تلك الحجب التي تتمثل في خصائص النفس- فإننا نُحَصِّلُ شيئًا من الأنوار، وتنكشف لنا بعض أسرار الملك والملكوت.

فنحن الآن في سيرنا إلىٰ الله، وفي هذه المرحلة، حيث يتكون طريق الله من سبعين ألف خطوة، أو سبعين ألف مرحلة، أو سبعين ألف جزء، كل جزء يمثل حجابًا، كلما قضيت حجابًا كان لي أن أقضي حجابًا آخر، والعجيب أن بعض السالكين قد يقطع السبعين ألف حجابا في يوم!! وبعض السالكين يقطع عشرة آلاف في أربعين سنة!! وهكذا، طبقًا لفتح الله عليه، ولذلك نرىٰ المشايخ يقدمون بعض المحدثين من مريديهم علىٰ القدماء؛ لأن هذا القديم لم يقطع في السير إلىٰ الله مثل ما قطع ذلك الحادث الجديد، فالقضية تتمثل في أنه فضل الله يؤتيه من يشاء، لا من الحول ولا من القوة.

وينبغي علىٰ السالك أن لا ينظر إلىٰ أنه كم قَطَعَ؟ وكم بقي عليه؟ فذلك من تمام الإخلاص، وذلك يساعده في حد ذاته إلىٰ أن يقطع أكثر، وكلما نظر إلىٰ مكانه اشتغل به عن ربه، كأنه ينظر ويتلفت حوله، (وملتفت في طريق الله



لا يصل)، حتىٰ الذي التفت ليرىٰ كم قطع من الطريق؟ وكم بقي عليه؟ نعم سيعرف كم قطع من الطريق وكم بقي عليه، ولكن هذا الشعور في حد ذاته سَيُدخِلُ عنده الإحباطَ، إذا كان قد عمل كثيرًا وقطع قليلًا، أو يدخل عليه الغرور إذا كان قد عمل قليلًا وقطع كثيرًا، وكلاهما -الإحباط والغرور- يعطل السائر في طريقه إلىٰ الله ﷻ.

إذن فما هذه الحجب التي أمامي حتىٰ أتخلص منها، وأتحول من حالة النفس الأمارة إلىٰ حالة النفس اللوامة؟

لم يكتب واحد من أهل الله في تفصيل ذلك، أو يأتي لنا بقائمة فيها السبعون ألف حجاب علىٰ ذلك التفصيل، إنما هم يكتبون بالجملة، ويرشدوننا، ويقربون لنا المعاني الروحية التي قد لا يكون لها مقابل في لغة الناس، لا في لغة العرب ولا في لغة العجم، إنما هم يشبهون الشيء بالشيء، فشبهوا السلوك، وشبهوا الطريق، وشبهوا المراحل، وشبهوا الحجب... إلخ بما هو معروف عندنا من معاني هذه الألفاظ، ولكن الحالة الروحية ليس لها هذا في الحس، وإنما مثله وليست هي هو، بل هي مثله تقريبًا إلىٰ الذهن.

وخطرات القلوب تمثل تلك الحجب، فمعي مثلًا قلب منشغل بالدنيا، متمسك بها، يحزن علىٰ المفقود، ويفرح بالموجود، وينسىٰ الموت، ويظن نفسه مُخَلَّدًا في الأرض، ويحصِّل المصلحة ويكون أنانيًا، لا يريد أن يؤثر غيره، ولا يريد أن يعطي ما في يده، متصفٌ بكل قبيح، متفلت من كل صحيح، امتلأ قلبه بالدنيا وبالظلمة، هذا الإنسان هو الذي أمامه السبعون ألف حجاب، فكيف إذًا نتخلص من تلك الحجب التي هي خطرات تخطر في قلب



الإنسان؟ خطرة تخطر فتشككه في جدوىٰ ما يفعل، أو تشككه في الثقة فيما عند الله، أو تؤكد عليه أن له حولًا وقوة مع الله ﷻ.

والإنسان يعيش في مثل هذه الأشياء دائمًا أبدًا، وإذا تخلص منها، وحاول أن يوازن نفسه، جاءه الوسواس من نفسه، أو من الشيطان، حتىٰ يخرجه من التوازن النفسي، والطمأنينة التي عليها المؤمنون، كل هذه الأشياء من الحجب التي تحجب الإنسان عن ربه، والتي تعكّر عليه طريقه، فكيف تزول تلك الحُجُب؟

وضعوا لذلك السُّبُل، منها: التفكُّر في خلق السموات والأرض، وكلما تَفكَّر الإنسان في خلق السموات والأرض، أيقن بوحدانية الله، وأيقن بوجوده ﷻ وبعظمته وجلاله.

وفِي كُلّ شيء له آية * تدلُّ علىٰ أنَّهُ الواحِد

كلما تدبر استصغر نفسه، ووجد أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وكلما تأمل في حقائق الدنيا عرف أنها حادثة، كانت ولم تكن من قبل، وعرف أنها فانية، وأنها إلىٰ زوال، وأن الإنسان سوف يموت.

كلما تأمل الموت عرف حقيقة الدنيا، وأنها تافهة قليلة، وعرف أنها مزرعة للآخرة، وأنها إنما وجدت للابتلاء والعمل، كلما تدبر في ذلك هانت عليه الدنيا.

فالفكر إذًا، والتدبر، والنظر في مخلوقات الله في السموات والأرض، والتأمل، والتعقل، كل ذلك أَمَرَنا الله ﷻ به في الكتاب الكريم، وأخبرنا رسول الله ﷺ أن هناك شياطين تصد الناس عن النظر إلىٰ السماء، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ



وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾[1] فبرزت هنا قضية الذِّكْر، فهما إذًا قضيتان، أولاهما: الفكر، وثانيهما: الذِّكْر.

وقد وضع أهل الله أفكارًا، يستطيع الإنسان أن يذكرها فيتخلص من كثيرٍ من الحجب، ووضعوا عددًا من أسماء الله تعالىٰ بإزاء كل مرحلة من المراحل، بحيث يتعين اسم من أسمائه الحسنىٰ، إذا اشتغل به المريد هَوَّنَ اللهُ عليه مراحلَ الطريق، ورفع الله به الحجب التي تكون.

من تلك الأسماء لفظ الجلالة: (الله)، ومنها كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله)، ومنها الضمير الذي يعود إلىٰ الله ﷻ : (هو).

وجعلوا لذلك خطة يسير فيها السائر، ووضعوا لها في إزاء كل حجاب لفظًا وعددًا، فيقولون مثلًا: اذكر لفظ الجلالة سبعين ألف مرة، ولكن وجدوا أن المريدين لا يتساوىٰ حالهم مع السبعين ألفًا، فوضعوا في بعض المراحل سبعين ألفًا، وفي مراحل أخرىٰ متقدمة جعلوها ثلاثين ألفًا، وفي بعض المراحل وضعوا خمسين ألفًا، ثم بعد ذلك استقر العمل عند المتأخرين علىٰ مائة ألف، وكل ذلك نابع مما يتضح عند أهل البصيرة والصدق والمعرفة بالله تعالىٰ، من آثار ملازمة أسماء معينة، بأعداد معينة، علىٰ نفس السالك إلىٰ الله، وإلىٰ أي مدىٰ يسهم ذلك في تهذيب نفسه، وقهرها علىٰ استحضار معنىٰ ذلك الاسم الإلهي، واعتياد النفس للتخلق أو التعلق بمدلوله، وهذا الوضع أيضًا إنما هو لتجلية القلوب من تلك الحجب، ومساعدة السالك في الطريق في إعمال فكره، وربطه بالعمل، الذي هو الذِّكْر.

---

(١) سورة آل عمران، آية: [١٩٠، ١٩١].



فنبدأ بلا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد التي فيها نفي للذات، وفيها تخلية للقلب وتحلية له، فيقولها مائة ألف مرة، يبدأ المريد بهذا الذِّكر فيحاول أن يتخلص من الحجب.. فكيف يتخلص؟ إذا ما ذكرها بيقين وباستحضار مع تمام النية، ويقرأ ما يطيق كل يوم، فبعضهم يطيق خمسة آلاف في اليوم، وبعضهم يطيق ألفًا، وبعضهم يطيق خمسمائة، فالذي يطيق خمسة آلاف سينتهي في عشرين يومًا، والذي يطيق ألفًا سينتهي في مائة يوم.

وينبغي علىٰ الإنسان أن يفعل ذلك تعبدًا لله، والتعبد معناه أنه يكون بتمام الخشوع وبتمام التفكر، ولذلك ليس من العبادة أن أذكر الآلاف في نصف ساعة، ليس هذا من العبادة، بل هو من أداء الواجب، ومن باب إثبات الحالة، حتىٰ أكون أنهيته وفرغت منه، بينما الأمر ليس كذلك ، الأمر هو أننا ينبغي علينا أن نذكر بتدبر، وتأملٍ، وتأنٍ، واستحضارٍ، وخشوع، ويقين، حتىٰ لو لم نذكر إلا مائة في اليوم، فإن المقصود هو حضور القلب، والمقصود هو معالجة ذلك القلب، والمقصود هو خدمة ذلك القلب، والمقصود في النهاية هو الله.

فلابد إذًا من أن نسير بتؤدة، وبتأن، وبذكر، لا ننشغل فيه حتىٰ بالعدد، ومن هنا لما أن أمر المشايخ الناس بأن لا يشتغلوا حتىٰ بالعدد أثناء قيامهم به، وكان من المفروض أن يضعوا حدودًا لتلك الأعداد فأنشأوا بسبب ذلك تلك السُبحة المعروفة بين الناس، وتطور إنشاؤها فبدأت بتسعة وتسعين، ثم زادت واحدة تكمل المائة، ثم وضعوا فيها علامات حتىٰ يتبين منها الأعداد، ثم وضعوا فيها عدادات تمكن الذاكر من أن يذكر مليون مرة عليها دون أن يُخطئ، ودون أن ينشغل قلبه بذلك، وكل هذه التحسينات إنما كانت من أجل تفريغ قلب المؤمن في ذكره لله سبحانه وتعالى، وأصبح هناك سبح تأتي لنا بمليون، وذلك



أنه يضع فيها عَدَّادين: عشرة حبات فوق المئذنة، وعشرة حبات في الجانب؛ وإذا سبحنا المائة عددنا من العَدَّاد الذي فوقه، فإذا انتهىٰ عَدَدْنا من العَدَّاد الآخر فيكون التي فوق بألف، والتي تحت تكون بألف، فإذا انتهينا منها فيكون قد ذكرنا عشرة آلاف، ثم يفعلون هذا الشيء مرة أخرىٰ بأن ينتقل العَدَّاد من حبة إلىٰ حبة وهكذا ونحن عندنا مائة، فمائة في عشرة آلاف بمليون، أي ألف ألف، وهذا يحدث دون أن يخلط عليه الأمر، ودون أن ينشغل قلبه بكم عدَّ؟ هل أخطأ؟ هل كذا... إلخ؟

تكلمنا إذن عن الطريق إلىٰ الله ﷻ، وأن هذا الطريق إلىٰ الله المَقْصِد منه هو الله وحده ﷻ، ولا ينبغي علىٰ السالك فيه أن يلتفت إلىٰ غير هذا المقصد الجليل، وقلنا: إن الالتفات قد يكون إلىٰ المُلْك وقد يكون إلىٰ الملكوت.. قد يكون إلىٰ الأسرار وقد يكون اشتغالًا بالأنوار، وكل ذلك هو ما سوىٰ الله، وما سوىٰ الله مما رأينا أو مما غاب عنا لا ينبغي أن يلفتنا عن الله ﷻ، فالسالك في طريقه إلىٰ الله قد يدرك بعض أسرار الملك، أو بعض أسرار الملكوت، أو يتهيأ له الاطلاع علىٰ أنوار الملك أو علىٰ أنوار الملكوت، ولكنه لا ينبغي عليه أن يجعل ذلك مقصده، بل المقصد هو الله تعالىٰ.

فهذه قاعدة جليلة، وهي أنه: (ملتفت لا يصل)، وقاعدة أخرىٰ جليلة، وهي أن: (الله مقصود الكل)، ومعنىٰ أن الله مقصود الكل أنه: مهما اختلفت السبل والوسائل ما دامت تحت نطاق الشرع الشريف فإنها توصل إلىٰ الله، ولذلك لا يُعترض بمشرب شيخ علىٰ مشرب شيخ آخر، ولا بمشرب طريقة علىٰ مشرب طريقة أخرىٰ، فطريق الله في الحقيقة واحد، إنما النزاع من جهلة المريدين.



(باب)
في أن طريق الله يشبه الدائرة،
وأن الْمَسَالِك وإن تعدَّدَت فإنها توصل إلى مركزها

فطريق الله الذي يتوصل إليه بالمشارب المختلفة كالدائرة: الله ﷻ في مركزها، والمريد علىٰ طرفها، ومحيطها تختلف فيه أنصاف الأقطار، والكل يوصل إلىٰ الله ﷻ، والطريق إلىٰ الله لابد فيه من شيخ، ولا بد أن يتأدب المريد مع الشيخ، وكل شيخ له طريقة في التربية. هذه الطريقة قد تتواءم مع المريد فينجذب إليه، ويسلك علىٰ يديه، ويترقىٰ كل يوم، وعلامة هذا الانجذاب أن يتعلم الإنسان كل يوم أدبًا جديدًا مع الله، فهو يسير في هذا الطريق فيزداد أدبًا مع الله تعالىٰ.

فالمقياس والمعيار الذي به التقوّيم هو: الأدب مع الله، فإن كان هذا الطريق يجعل الإنسان مؤدبًا مع ربه، ويزداد كل يوم في ذلك الأدب، ويترقىٰ، ويجد قلبه، فإن هذا الطريق هو الطريق الصحيح، وهذا الشيخ هو شيخه، أما إذا كان لا يتحرك، ولا يتقدم، ولا يعتبر، ولا يتعظ، فالخلل ليس في الشيخ بل في عدم التواؤم بين الشيخ والمريد، أي أن رزق ذلك المريد ليس عند ذلك الشيخ، ورزق ذلك الشيخ ليس عند ذلك المريد.

ولذلك إن انصرف من تلك الطريقة وبحث عن طريقة أخرىٰ فلابد أن يتم ذلك بغاية الأدب والاحتشام مع الشيخ، فلا يتهمه بالقصور ولا بالتقصير،



ولا يتصيَّد له ما يظنه أنه من النواقص، بل النقص يكون فيه، ولذلك ينبغي عليه أن يتحول، ولكن مع زيادةٍ في التوقير، والاحترام، والنصرة والتعظيم لهذا الشيخ، ومدحه في خلواته وجلواته، ولا يتحرك بقلبه عنه، يعني لا يغتابه بقلبه، لأن الغيبة قد تكون باللسان وقد تكون بالقلب، فالاحتقار، والتعالي، والتكبُّر من غيبة القلب، فليس اللسان وحده هو الذي يغتاب وينم، وإنما القلب أيضًا، إذا ما أودى بصاحبه إلى الانتقاص من الشيخ، ونقض ما يقول، إذًا رزقه ليس معه، فلينصرف، ولكن ينصرف بغاية الأدب، وبغاية الاحتشام والاحترام.

وهكذا أبدًا، فقد يذهب إلى واحد أو اثنين أو ثلاثة، فلا يجد عندهم رزقه، ولكن الله تعالى كريم؛ فإذا رآه مخلصًا، مداومًا، مستمرًا على السعي لمعرفة طريق الله، والسعي فيه، فإن الله يفتح عليه، ويوفقه، ويجذبه إلى شيخه الذي تصلح معه تربيته، فالأمر بيد الله لا بحول منا، ولا بقوة، ولا بذكاء، ولا ببحث، ولا بعلم، إنما هو بتوفيق الله رب العالمين.

وهذا مقدار من الإيمان بالغيب والاعتماد على الله لا بد منه، فالسعي إلى معرفة الطريق ليس في حول الإنسان وقوته إنما هو بتوفيق الرحمن تعالى.

ثم إنه هناك من يأخذ الطريق تبركًا، وهناك من يأخذ الطريق سلوكًا، أما الذي يأخذه تبركًا فله أن يعدد مشايخه، فيأخذ من هذا، ويأخذ من هذا، ويأخذ من هذا، تبركًا، ومشايخنا كانت تأخذ من مشايخ عِدَّة الأذكارَ تبركًا، ولكنَّ طريق السلوك يجب أن يكون طريقًا واحدًا، وشيخ السلوك ينبغي أن يكون شيخًا واحدًا، فلابد في السلوك -ما دام هذا هو طريق السلوك الذي سنسلكه-



من أن يكون الشيخ شيخًا واحدًا، لا نشارك فيه شيخًا آخر، فنأخذ من هذا ونأخذ من هذا ثم نقارن بينهما، ويبدأ المريد يُعَيِّنُ نفسَه حَكَمًا عليهما دون أن يشعر، أو منتقيًا من طريقتهما ما يريد دون أن يشعر فَيُودِي بنفسه في المهالك، وكأنه وضع نفسه بين حجرين من أحجار الرحىٰ تطحنه ولا يطحنها، ففي السلوك ينبغي أن يكون الطريق واحدًا.





(باب)
في أن معايشة السلوك إلى الله
إما بالمعرفة وإما بالعمل والتطبيق والتذوق

كذلك معرفة الطريق، إما أن تكون بالعلم وإما أن تكون بالعمل؛ فيمكن أن نَطَّلِع على الكتب وندرك فيها أنواع النفس، وأنواع الأنوار التي تتأتى من الذكر، وندرك معنى أن يفتح الله عليك؟ ومعنى أن ملتفتًا لا يصل؟ ومعنى أن الله تعالى مقصود الكل؟ ونقرأ الكتب، ونصبح أعلم العالِمِين في التصوف، إلا أننا لم نسلك بعد.

والمعرفة على كل حال لا بأس بها، لأنها تساعد المريد على فهم الأمور، وتجعله أكثر أدبًا مع شيخه، ومع نفسه، ومع الناس، ومع الكون الذي خلقه الله، وتعلمه كثيرًا من الأدب مع الله، فالعلم علم والمعرفة معرفة، إلا أن العمل يجعل المريد يذوق، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف كما قالوا.

والنبي ﷺ حينما مَرَّ بِهِ سيدنا الْحَارِث بن مَالِك الأَنْصَارِيّ رضي الله عنه، قَالَ لَهُ: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ**»؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: «**انْظُرْ مَا تَقُولُ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ**»؟ فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَاطْمَأَنَّ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ



فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ» ثلاثًا[1]، فمن عرف وذاق حلاوة الذِّكْر والفكر، ليس كمن علم ذلك من الكتب والصحف.

ومن عاين الأنوار، وكشفت له الأسرار، وعاش مع الله سبحانه وتعالى في مقامات التوبة والتوكل والرضا والتسليم ليس كمن سمع بهذه الأمور فصدقها، ولكنه لم يمارسها، ولم يتلقها قلبه.

إذًا فإدراك الطريق قد يكون عن طريق العلم، وقد يكون عن طريق التطبيق والممارسة والعمل، فماذا لو فقدنا الشيخ؟



(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: (٣/٢٦٦)، والبيهقي في الزهد الكبير: (ص٣٥٥)، وعبد بن حميد في مسنده: ص١٦٥، وابن حبان في المجروحين: (١/١٥٠)، وابن عساكر في تاريخ دمشق: (٣٨/٢٧٤)، وغيرهم من حديث الحارث بن مالك الأشعري أو حارثة، ورواه أبونعيم في الحلية: (١/٢٤٢)، وعبد الله بن محمد بن جعفر في طبقات المحدثين بأصبهان: (٤/١٨٢) من حديث معاذ.



(باب)
فيما ينبغي على السَّالك إذا فَقَدَ الشيخ الْمُرَبِّي

فَقْد الشيخ نوعان: فَقْد نسبي، أي أن الشيخ موجودٌ في هذه الحياة الدنيا، ولكنني لم أصل إليه بعد، أو أنه ليس موجودًا في بلدي مثلًا وهو موجودٌ في بلد آخر.

وفَقْد كليّ، كأن يكون -والعياذ بالله، ونسأل الله ﷻ أن يقبضنا قبل ذلك العصر- قد فقد من الأرض في هذا العصر بالكلية.

فالنوع الأول يعني أنني لا أعرفه الآن، ولكنني إن شاء الله سأعرفه غدًا أو بعد غد، أو قد يحتاج إلىٰ جهد أكبر، فإن كان في بلد آخر رحلنا إليه.

والنوع الثاني أن يكون منعدمًا، فما العمل حينئذٍ؟! تكلم العلماء عن هذا؛ فألَّف أحدهم كتابًا أسماه: (هداية ربي، عند فَقْد المربي)، وهذا العنوان الراقي: «هداية ربي، عند فَقْد المربي» معناه أن المربي إذا فُقِد، فلابد حتىٰ نحصل عليه، ونَمْثُل بين يديه، أن نفعل شيئًا، لا أن نسكت، ونثبط، فما هو هذا الشيء؟! قالوا: إن النبي ﷺ بجاهه العظيم ملاذ لكل المؤمنين، فهو الباب الذي بيننا وبين ربنا، فإذا فقدنا المربي الذي يعرف مسالك الطريق وأغواره ووعورته، ويعرف مسالك النفس وكيف تُربَّىٰ، ويأخذ بنا في جذب وشد، وشدة ورخاء معنا، حتىٰ يربينا، ويعلمنا الأدب مع الله.



إذا فقدنا ذلك المربي الحاضر القادر، فإننا ينبغي علينا أن نلتمس الخير من يدي رسول الله ﷺ يعلمنا الأدب مع ربنا، إلى أن يصل بنا إلى شاطئ الأمان، فما ذلك الاتصال برسول الله؟

هو الصلاة والسلام عليه ﷺ، ففضل الصلاة على النبي ﷺ عظيم، فضله ونوره ﷺ أعلى وأتم من نور الملك ونور الملكوت، والرهبوت، والرحموت، والجبروت، واللاهوت، فنور النبي ﷺ هذا شيء آخر، فالنبي ﷺ ينبغي أن نتصل به عن وسيلة شرعية، وهي الصلاة عليه ﷺ، التي أمرنا الله بها، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ثم أمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[1]، ويقول في آية أخرى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[2]، قال بعض العارفين: فهذه هي حقيقة الصلاة على النبي ﷺ التي نتلوها بألسنتنا حقيقتها في العمل هي أن نسلم لأمره وحكمه، ثم لا نجد في أنفسنا حرجًا مما قضى، النبي ﷺ يقول: «**أَنَا مِنْكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِلْوَلَدِ**»[3]، وهو صاحب الشفاعة، وهو رحمة للعالمين، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا، فهذا النبي المصطفى الكريم ﷺ ينبغي أن نسلم انقيادنا له.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: [٥٦].
(٢) سورة النساء، آية: [٦٥].
(٣) رواه ابن حبان في صحيحه: (٢٧٩/٤)، وأبو داود في سننه: (٣/١)، والنسائي في سننه: (٣٨/١)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٩١/١)، والحميدي في مسنده: (٤٣٤/٢)، وصححه الإمام النووي في المجموع: (١٢٨/٢)، وقال ابن الصلاح في فتاواه (ص١٨٧): حديث ثابت.



هذه حقيقة الصلاة على النبي، نتلوها بألسنتنا، ونستحضر هذا المعنى في أذهاننا، ونستعد بسلوكنا وأفعالنا أن نكون طوع أمر النبي ﷺ فنترجم الحب الذي في قلوبنا إلى جَعْلِه أسوة حسنة نتبعها لأننا نرجو به ﷺ وباتباعه الله، ونرجو به اليوم الآخر ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

فالصلاة عليه ﷺ عظيمة، بها تستنير القلوب، وتغفر الذنوب، وتستر العيوب، وتيسر الغيوب، وكل عمل بين القبول والرد إلا الصلاة على النبي ﷺ، فهي مقبولة أبدًا، من الفاسق والعاصي، لا تحتاج إلى نية، ولا تحتاج إلى إخلاص، ولا تحتاج إلى شيء لتعلقها بالجناب الأعظم ﷺ، وبها تزيد الجنة في الاتساع، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا**»[2]، ولم يشترط في ذلك لا إخلاص ولا تقوى ولا مقامات ولا غير ذلك، ولذلك فهي تصلح لمن أراد أن ينجذب إلى طريق الله سبحانه وتعالى على أي حالٍ كان فإن ذلك من الذِّكْر، والصلاة من الذِّكْر، وذِكْر رسول الله ﷺ جعله الله سبحانه وتعالى مقرونًا بذِكْرِه.

الطريق إلى الله كما قلنا: إن الله فيه هو مقصود الكل. وقلنا: إن كل الطرق توصل إلى الله، وأن طريق الله واحد، وإنما الخلاف من جَهَلَةِ المريدين، وقلنا:

---

(١) سورة الأحزاب، آية: [٢١].

(٢) رواه مسلم في صحيحه: (١/٢٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه: (١/٢١٨)، وأبو داود في السنن: (١/١٤٤)، عن عبد الله بن عمرو، وابن حبان في صحيحه: (٣/١٨٥)، والحاكم في المستدرك: (١/٧٣٥) عن أنس، ورواه الترمذي في سننه: (٢/٣٥٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه.



إن هذا الطريق يحتاج إلىٰ شيخ يربي. وهذا الشيخ قد يكون وارثًا محمديًا، والوارث المحمدي كأنه قد انطبع فيه ما ورَّثه رسول الله ﷺ للأمة، ففيه تخلق بأخلاق النبي المصطفىٰ، والحبيب المجتبىٰ، والمثال الأعلىٰ، والإنسان الكامل ﷺ، لا يغضب إلا لله، وقلبه مطمئن دائمًا بذكر الله، وحاله مستقر مع الله علىٰ حال التوفيق، يهدي الله به عبادًا كثيرًا، ويفتح الله به قلوبًا كانت مغلقة، ويغفر الله له ولمن استهدىٰ بهديه، ويمكن أن يكون هذا الشيخ مرشدًا كاملًا يعرف أخبار الطريق، وطريقة السير فيه إلىٰ الله ﷻ، ومراحل هذه الطريقة، ويعلم كيف يربي المريدين.

والمرشد الكامل قد يكون له الإرشاد بالحال لا بالقال، يجلس الإنسان معه، فيرتقي إلىٰ الله من غير أن يتكلم، وقد يصل أحدهم أن تكون له التربية بالنظرة، ينظر إلىٰ المريد فيربيه، وينفعل قلب المريد بمقدار ما في توجه شيخه إليه من الصدق والنصيحة والشفقة مع كمال المعرفة بالله، مما يجعل كل تصرفات الشيخ هديًا وتربية، فإذا بالقلب يتخلىٰ عن القبيح، ويتحلىٰ بالصحيح، مما يجعله في حالة يتهيأ بها إلىٰ الطاعات، وفي حالة يمحو فيها عنه المعاصي، كل ذلك بالنظر.

وهذا هو حال المصطفىٰ ﷺ، كان إذا نظر إلىٰ أحد من المؤمنين صيّره صحابيًا، وأحدث في نفسه عدالة استوجبت منا تعظيمهم، وتوقيرهم، وتصديقهم، فكل الصحابة عُدُول بتعديل رسول الله ﷺ لهم، وكيف عدَّلهم؟ بالنظر إليهم، يعني جلسوا أمامه فنظر إليهم فأحدث في نفوسهم شيئًا استوجب عدالتهم، هذه الخاصية التي كانت في رسول الله ﷺ، وهذه المنحة



الربانية التي أعطاها الله لنبيه ورَّثها لأتقياء أمته، وبعضهم كانت له التربية بالكلام، وبعضهم بالمصاحبة، وبرؤية أحواله في الحَلّ والترحال، وفي الغضب والرضا، وفي الضيق والبسط، فيحدث من هذا الشأن الكثير من التغير في نفس المريد، فلابد في الطريق من الشيخ.







(باب)
في الخلوة وأنها فترة معينة يخلو فيها الإنسان إلى نفسه ؛ لتصفيتها وتجديد معاني الإيمان فيها

ومن وسائل التربية حتىٰ يدخل الإمام في الطريق ما ذكره الإمام المحاسبي قال: (إن الإنسان إذا عَطَّل ملك السيئات أربعين يومًا تفجَّرت ينابيع الحكمة من قلبه، وعرف أن طريقنا هو طريق الحق، فمن جَرَّب ذلك ولم يجد ما قلناه فليضربنا بالنعال) هذا كلام الإمام الحارث المحاسبي، فأسموا هذا بالخلوة الأربعينية، وأخذوا دليلها من تعبد النبي ﷺ الليالي ذوات العدد في غار حراء، فكان يتزود ويذهب، يعتزل الناس، ويختلي بالعبادة، ولذلك سميت بالخلوة.

والخلوة الأربعينية أربعون يومًا، من أجلها وجدنا الخلايا نشأت في المساجد وألحقت بها؛ ففي مسجد الظاهر جاشنكير خلف سيدنا الحسين تحيط الخلايا بفناء المسجد، وفي المحمدي الدمرداشي كذلك تحيط الخلايا بالمسجد، وفي مسجد العشيرة المحمدية بنىٰ سيدنا الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ موضعًا وكتب عليها (الخلوة)، فالخلوة يدخلها الإنسان من أجل أن يقطع علائقه بالدنيا، وبالناس، وبالأحداث، وبالزمان، وبالمكان حتىٰ يعطل ملك السيئات أربعين يومًا فتنفح الحكمة من قلبه، والحكمة أمر يصعب التعبير عنه باللسان، إنما هي انكشاف لأسرار التأدب مع الله، وأسرار كيفية السير في هذا الطريق، وأسرار الكون والملكوت، وأنوار كثيرة متداخلة



محيطة؛ بعضها مردود إلىٰ الملك، وبعضها مردود إلىٰ الملكوت، واكتشاف مراتب الوجود، والتيقن من أن هذا هو الطريق الذي يرضاه الله ﷻ علىٰ ملة وشريعة النبي المصطفىٰ والحبيب المجتبىٰ ﷺ.

في القديم لم يكن تلفاز، ولا اتصالات، ولا مواصلات، ولا تقنيات، وكان هناك فسحة للوقت، للتفكر والتذكر، ولكن اليوم امتلأ يوم الإنسان بالتكاليف التي قد لا يستطيع شرعًا أن يختلي عنها، فإذا دخل أحدهم الخلوة -وهي صعبة عزيزة في وقتنا الحاضر؛ لانشغالنا بتكاليف الدنيا التي تصارع الناس فيها- فما الذي كان يحدث؟ كانوا يحاولون أن يكونوا علىٰ وضوء دائمًا، كلما نام واستيقظ توضأ، وكلما نقض وضوءه توضأ، وكانوا يلبسون البياض، ففي البياض أسرار، اكتشفها بعض الهنادكة وبعض المجوسيين عندما رأوا أن هذا البياض يحدث لهم تركيزًا في الفكر، وسباحة في الكون، فهو أمر مستفاد من ناحية الوجود، إلا أن النبي ﷺ أرشدنا إليه سنةً، وهكذا كان حال النبي المصطفىٰ يرشدنا إلىٰ ما يطابق الوجود بكل مسار، وإلىٰ هذه المعاني الرائقة التي تُبيّن أن الكتابين من عند الله -القرآن والكون- فكلاهما صورة للآخر، ولكن هذا صدر من الله أمرًا، وهذا صدر من الله خلقًا، فيلبسون البياض ويكونون علىٰ طهارة كاملة، ويستقبلون في غالب جلوسهم القبلة، ويشتغلون بأمرين: بالذكر والفكر؛ أما الذكر فيقول الله ﷻ فيه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

ويقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا، مَنْ

(١) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].



أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1]، فيذكرون الله ﷻ بهذه الأذكار، بالاسم المفرد، وكانوا علىٰ ثلاثة أنحاء: إما أن يذكرونه مجردًا هكذا: الله الله الله، الرحمن الرحمن الرحمن، أو يا الله يا الله يا الله.. بالنداء، وهو الشائع، لأن فيه معنىً ظاهرًا، وفيه جملة مفيدة كاملة، وهو أقرب إلىٰ الذهن والنفس والروح، يذكرون بالأسماء الحسنىٰ، وبعضهم يختار من سبعة؛ هذه السبعة يسمونها السبعة الأصول يبدأون فيها بلا إله إلا الله، بالنفي والإثبات، ثم بلفظ الجلالة يا الله، ثم يا هو، ثم يا حي، ثم يا قيوم، الله حي قيوم، قِيل: إنه الاسم الأعظم، الذي إذا ما دُعي الله به أجاب، ثم الحق، ثم القهار، ويتم بذلك السبعة، وتختلف طريقة عن طريقة أخرىٰ في اختيار تلك الأصول التي يرشد فيها أنها تجمع معاني الأسماء الواردة في الكتاب والسنة.

والأسماء الواردة في السنة مائة وأربعة وستون اسمًا لله تعالىٰ، والأسماء الواردة في القرآن مائة وثمانية وخمسون اسمًا لله تعالىٰ، والمجموع بينهما -إذا ما حذفنا المكرر- يصير حوالي مائتين وعشرين اسمًا لله تعالىٰ، ولذلك روايات حديث التسعة وتسعين اسمًا اختلفت؛ ففي بعضها ما ليس في بعضها الآخر، فلو حذفنا المكررات وجمعنا الأسماء التي وصف اللهُ بها نفسَه ووصفه بها رسوله ﷺ، والدالة عليه ﷻ لوجدناها في حدود مائتين وعشرين اسمًا، والنبي ﷺ يقول: «... **أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ،**

---

(١) الحديث في أن لله تعالى تسعة وتسعين اسما هكذا على الإجمال رواه البخاري في صحيحه: (٢/٩٨١)، ومسلم في صحيحه: (٤/٢٠٦٣)، أما تفصيل تلك الأسماء الكريمة وذكرها كاملة فقد رواه الترمذي في السنن: (٥/٥٣١)، وابن ماجه في السنن: (٢/١٢٦٩)، وقد أفرد الإمام الحافظ أبو نعيم جزء لطرق هذا الحديث، وانظر بحوثا موسعة في ذلك عند الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (١١/٢١٨-٢٣٠).



أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي... الحديث»[1].

فأنتج لنا هذا أن أسماء الله منها ما قد يعلمه أحد من البشر ولا يعلمه آخرون، ومنها ما استأثر الله به في علمه، ومنها ما أنزله في كتابه وأرشد الخلق إليه.

ومن الذِكْر يحدث تدرُّج في النفس البشرية للارتقاء مع الله، ومن الذكر تتحرك اللطائف الخمس، واللطائف الخمس هذه أحوال للروح أو للنفس الناطقة، يسميها أهل الله: (القلب، والروح، والسر، والخفي، والأخفىٰ)، وهي مراتب لا يدخل الإنسان في واحدة منها إلا إذا فرغ ما قبلها؛ فهناك مرحلة تسمىٰ بمرحلة القلب، ثم أعلىٰ منها الروح، ثم أعلىٰ منها السر -حتىٰ العوام يقولون خرج السر الإلهي- ثم أعلىٰ منها الخفي، ثم أعلىٰ منها الأخفىٰ، وهذه كلها إنما في عالم الملك، ومثلها ينعكس في عالم الملكوت، فالمراتب تصير عشرًا، ومنها بعد ذلك درجات إلىٰ أن ننتقل إلىٰ عرش الرحمن، وهناك ما هو فوق عرش الرحمن بما يسمىٰ عوالم، فكل هذا الملك والملكوت يسمىٰ عالم الناسوت، والكون ما سوىٰ الله رب العالمين، وهناك عالم هو عالم الرحموت، وعالم اللاهوت، وعالم الجبروت، وعالم العظموت، وهذه تجليات لله ﷻ. وهذا غاية ما اطلع عليه البشر، والله لا نهاية له، ولا محيط به، لا من الملائكة المقربين، ولا من الأنبياء المرسلين، فهو ﷻ القاهر فوق عباده

(١) رواه ابن حبان في صحيحه: (٣/٢٥٣)، والحاكم في المستدرك: (١/٦٩٠)، والطبراني في المعجم الكبير: (١٠/١٦٩)، وأبو يعلى في مسنده: (٩/ ١٩٨).



وهو حكيم خبير، ﷻ لا يحيط به عرش، ولا يصل إليه في كنهه بشر، لا سيدنا محمد ، ولا من هو دون ذلك، فالرب رب، والعبد عبد، وهناك فارق، بين المخلوق والخالق.

ولا يزال المختلي في خلوته يذكر الله إلىٰ أن يفتح الله عليه، وكان من المعتاد أن يُفتح في اليوم العشرين، في اليوم الواحد والعشرين، في الثالث والعشرين فيتم العدة تبركًا وحمدًا لله تعالىٰ أن فتح عليه.

والفتح يجعل الإنسان علىٰ يقين لا يتردد أبدًا، لا في عبادته، ولا في حقيقة النبي ﷺ ولا نورانيته، ولا في الطريق الذي يسلك، ولا في الأدب الذي يتبع؛ وتتحول المسائل إلىٰ مشاهدات أكثر منها معلومات، تتحول المسائل إلىٰ رضا، واستقرار، وتسليم لا ينازع الإنسان نفسه ولا يطالِب.

فالخلوة أولها: الذكر، وثانيها: هو الفكر. ففيم يفكر؟ التفكير في ذات الله إشراك، ودعوىٰ الجهل بشأنه ﷻ إدراك، هذا كلام مكتوب في الكتب لكنه الآن يراه، يسمعه، يشاهده، يحياه، وهو حينئذ يسمع بعينيه أكثر مما يسمع بأذنه، وحينئذ يرىٰ بأذنه أكثر مما يرىٰ بعينيه لأن وسائل الإدراك لا تتعلق حينئذ بالحس إنما تتعلق بشيء هو ما وراء الحس، ومن هنا فإنه يتفكر في مراتب الوجود.

ومراتب الوجود -كما قالوا- أربعون مرتبة، كتب فيها الشيخ الجيلي بالتفصيل، وبَيَّنَ كل مرتبة ومعناها، وما الذي يكون فيها، أعلىٰ هذه المراتب هي مرتبة: غيب الغيب، وهو الله، أي الغيب المقدس الذي غاب عن كل أحد إلا نفسه، ولا يدركه ﷻ إلا هو، فلا إله إلا هو، فيشعر الإنسان حينئذ بضآلته،



وبقلته، وبفنائه، وباحتياجه إلىٰ الله في وجوده وفي استمراره، فنحن نخلق كل ساعة، بل كل لحظة، بل كل جزء من اللحظة بخلق الله لنا، ولو أنه قطع عنا الإمداد لفنينا، حينئذ يتحقق المفكر المختلي العابد بكلمة: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، يعرف حقيقتها، ويدرك معناها، ويدرك أنه هو أصلًا من الهباء المنثور، الذي لا وجود له بالحقيقة إلا بإيجاد الله له، وأن علاقته مع الله تقوم علىٰ كن فيكون، فلو أن الله ﷻ صدر منه أمر فما بين الكاف والنون - ولا ترتيب عنده- يفنىٰ العالم، هو يعلم هذا ويراه ويشاهده ويتذوقه، والتذوق إذا دخل القلب لا يخرج منه أبدًا، فمن ذاق عرف، ومن عرف اغترف، وهذه من القواعد كذلك.

يحدث ذلك كله بالذكر والفكر، وهذه قضية كبيرة، بحر لا نهاية له، وإنما نحن نلقي الضوء علىٰ مجمل ما يحدث في الخلوة.

فيلبس البياض، ويتطهر، ويقطع علائقه بالدنيا، ثم منهم من كان يصوم، وفي الصيام مساعدة كبيرة للروح في الترقي، ولا يأكلون ما خرج من روح، ولا ما كان فيه روح، وكأن الروح تعطِّل بعض ترقيها، وإن كان سيعود إليها بعد ذلك، ولكن في هذه الأربعين يحاول الإنسان أن يهيئ نفسه من كل جهة، فيمتنعون عما فيه روح وعما خرج من روح، إلا نبات الأرض، ولذلك كان الأولياء القدماء أكلهم هو الياميش، أو الزبيب، أو الكاجو، أو اللوز، والجوز، يضعونه في علبة، ويأخذون سفةً في اليوم، وسبحان الله هذا النوع من الطعام عالي السعرات جدًا، المائة جرام من كل واحد تساوي تسعمائة، يعني هو يأخذ غرفتين في اليوم فيكفيه، وهذا يساعد علىٰ أمور أخرىٰ كثيرة، ويكتفون بالماء وبالتمر وبهذه النباتات، بل بعضهم زاد علىٰ ذلك ألا يأكل مما مسته



النار، وعلىٰ ذلك فلا يأكل الخبز، لأن الخبز مسته النار، ولا يأكل الطبيخ ولو كان نباتًا، لأنه مسته النار، فلا يتبقىٰ في النهاية إلا هذه الياميشيات، يأخذ منها ويأكل، وهذا أكله الذي يعيش عليه أربعين يومًا، فتذهب كثير من أدواء الجسد، ولا يحتاج إلىٰ أن يذهب إلىٰ الخلاء ودورة المياه إلا مرة في الأسبوع، وبعضهم مرة في الشهر، وبعضهم مرة في الأربعين يومًا، فيحافظ علىٰ وضوئه أيضًا الذي هو حريص أن يحافظ عليه، فكان هذا حالهم.

ويدخلون في الذِّكْر، والذِّكْر بحر، ويدخلون في الفكر، والفكر بحر، ومراتب الوجود هذه لو تكلمنا فيها لا ننتهي، ووصلوا منها في الكتب إلىٰ أربعين مرتبة، إلا أنها تتكاثر؛ لأن هذه الأربعين عنوان، كل عنوان منها تحته عناوين كثيرة، فيمكن أن نصل إلىٰ أربعمائة مرتبة، إلىٰ أربعة آلاف، إلىٰ أكثر من ذلك.

وكان يفتح علىٰ من يدخل الخلوة، حتىٰ قال الإمام الشعراني: (دخلت الخلوة ففتح عليَّ مائة وأربعة وعشرون ألف عِلْم في يوم)، وهذا الفتح قلنا قبل ذلك إنه لا يعتبر إلا إذا عَلَّمَنا مزيدَ أدبٍ مع الله ﷻ.

في الخلوة حدث لهم انكشاف الكائنات وتسبيحها، وفي الخلوة حدث ما أسموه بـ : سجود القلب، السجود الظاهري معروف، أن الإنسان ينحطُّ من علو إلىٰ الأرض، ويجعل جبهته علىٰ الأرض، ولكن كيف يسجد القلب؟

قالوا: هي حالة إذا سجد القلب لا يقوم منها أبدًا، يظل ساجدًا هكذا إلىٰ أن يلقىٰ الله، وهذا ما يسميه أهل الله بالمقام العالي، المقام العالي هو سجود القلب لله، ففي الخلوة، وبسبب هذا اليقين الذي يحدث فيها هو سجود القلب



لله، وسجود القلب لله ليست له عبارة باللغات يُعَبَّرُ بها عنه، يعني لا يدرك حقيقته إلا من جربه، أما الذي لا يجربه لا يمكن أن يحصل معناه، لماذا؟ لأنه ليس هناك في اللغة ما يصف هذه الحالة، سجود القلب لله يحدث من الخلوة هذه.



(باب)
في أنه إذا كان آخر الزمان ييسر على الناس ثلاثة أشياء: الحج ،والعلم ،والولاية

يقول محيي الدين بن العربي: (في آخر الزمان -ونظن حالنا أننا في آخر الزمان؛ لأن الأوصاف كلها تتحقق فيما أخبر به سيد الخلق ﷺ- ييسر على الناس ثلاثة أشياء: الحج، والعلم، والولاية).

أما الحج فالحمد لله، قد اتضحت الآن السهولة، ولو قارنّا ما نحن فيه الآن بما كان يحدث في السابق لعرفنا مدىٰ منة الله علينا، من سهولة الانتقال، ومن أمن الطريق.

كان المحمل يخرج من مصر، يخرج ومعه فرقة من الجيش المصري حتىٰ تدافع عنه أثناء الطريق؛ لأنه كانوا يأخذون الخيرات، والزكوات، والصدقات، والميرة -الأكل والشرب- لأهل المدينة ومكة، والزواد كانوا يأخذونه معهم، فكان قطاع الطرق يترقبون الطريق البري ويأخذون هذا، فلابد من حماية، فكان يتحرك الجيش، يعني كأنه علىٰ أبواب حرب، والذي يذهب إلىٰ الحج كأنه ذاهب في جهاد، لطول المسافة، ووخد القلاص -والقلاص هي الإبل، والوخد هو إسراعها في السير فتهتز- وكان الشعراء يتغنون لها؛ لأنها منهكة، ومتعبة، فحتىٰ يصل الإنسان إلىٰ مكة يكون قد أجهد وتحطم، ونحن في الطريق البري نأتي من عند الْجُحْفَة ونُحْرِم، ما بين الْجُحْفَة ومكة عشرة أيام، فكانت عشرة أيام من العذاب، والسفر في ذاته قطعة من العذاب،



قالت عائشة رضي الله عنها: (ولو شئت لقلت: العذاب قطعة من السفر)[1] لما كان عليه هذا الحال، ونحن الآن نتكلم عن اتصال دائم، ونركب الطائرة، ونذهب فنجد السيارة مكيفة الهواء، ونذهب فنجد الفندق أيضًا مكيف الهواء، ونجد الحرم نفسه مكيف الهواء، حتىٰ الرخام يمتص الحرارة وهكذا، وصار سفر الحج كأنه رحلة سياحية، في حين جعلها النبي ﷺ هي جهاد النساء، يعني المرأة التي تذهب الحج فكأنما جاهدت في القتال.

حتىٰ القتال أيضًا تطور، فالقتال كان بالسكاكين، وبالسيوف، وبالرمح، كان الجسم يجرح، وكل جرح له قصته، كل هذا يُسِّر، وأصبحت المسائل مُيَسّرة، ولكن كم من الحج يعد من الحج المبرور؟ هذا هو الكلام، كم من الحج يقبل؟.

القضية الثانية: العلم، أصبحت هناك كهرباء اخترعت في القرن الماضي، ووجد القلم الحبر ثم أصبح موضة قديمة، ووجد (الفلومستر) ،ثم أصبح موضة قديمة، فجاء الحاسب الآلي وأصبح الناس لا يحسنون الكتابة.

تطور رهيب في قضية الكتاب ونشره، سنة ألف وأربعمائة وتسعين من الميلاد ظهرت المطبعة، أي منذ حوالي خمسمائة سنة، فأصبح كل ما هو موجود في العالم موجودًا علىٰ (السي دي)، مائة وعشرون مليون معلومة تبثها وكالات الأنباء كل يوم، كلها مصنفة ومفهرسة، ويمكن أن يسترجع الإنسان منها ما شاء في أي وقت شاء بسهولة.

تغيَّر العلم كنت في الماضي حتىٰ أحصل علىٰ معلومة في الكتاب، لا بد

---

(١) انظر حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب، وقد نسبه السرخسي في المبسوط لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ونسبه غيره لابن عمر رضي الله عنهما.



أن أنقب الكتاب صفحة صفحة، وأنقبه بدقة حتىٰ لا أُخْطِئ في حرف هنا أو هناك، هذا هو تيسير العلم، ولكن أين العلماء؟! وأين هذا الذي يعيش مع الكتاب الأيام والشهور حتىٰ كان بعضهم يحفظه.

الشيخ أحمد بن الصديق الغماري -رحمه الله- ذهب إلىٰ أدارسة الصعيد، فجلس بين الظهر والعصر يقرأ مخطوطًا عندهم، فقال له المضيف صاحب الدار: خذه يا شيخ أحمد، لما وجده مهتمًا به، ومنقطعًا عنهم، قال له: هذا من تركة أبي، وأنت أحق به مني، فقال الشيخ الغماري: حفظته، سَمِّعْ لي، قال: العفو يا سيدنا الشيخ. قال له: سَمِّعْ لي، فَسَمَّعَ له، فوجده قد حفظه عن ظهر قلب، من الظهر إلىٰ العصر!

فالحفظ ملكة، إذا دربت تقر، وإذا تركت تفر، الحفظ ملكة؛ لأنه اعتاد أن يحفظ، ويحفظ، ويحفظ، فهو قد تعود علىٰ الحفظ، وبعضهم كانت عنده قوة الحفظ هذه ملكة، كالإمام الشافعي ﷺ، كان يستر الصفحة التي علىٰ اليسار حتىٰ لا يراها، وحتىٰ لا يختلط عليه ما علىٰ اليسار، فيما يقرأه علىٰ اليمين، وكان الشيخ محمد أنور الكشميري رحمه الله يقرأ في مطالعته فيحفظ كل ما يقرأه ويظل في ذهنه لمدة يومين!! سبحان الله!! أشياء عجيبة.

الثالثة: الولاية، وسيدي محيي الدين عنده حكم غريب جدًا يقول فيه: (التصديق بنا ولاية) يعني إذا صدقت بهذا الذي يقال، وبكل هذا الذي لم تجربه أو لم تدخل فيه بعد أو كذا... إلىٰ آخره، التصديق في ذاته ولاية.

فالذِّكْر والفكر ينفتح بهما علىٰ الإنسان فتوح العارفين به تعالى، وتتوارد المعارف علىٰ القلب العارف، والشيخ المرشد الذي يعينك علىٰ السير إلىٰ الله



يضبط هذا، فيرىٰ أنه إذا زادت عندك المعارف أمكن أن تصاب بجنون، وأصلًا طريق الله ليس فيه جنون، لكن يحدث هذا إذا كان السلوك إلىٰ الله غير منضبط، فإن لم يكن هناك شيخ مرشد يهدئ منك، وإذا وجدك قد نقصت عن المقصود فيعلو بك إلىٰ أن تنضبط المسألة، ولكن من سلك من غير شيخ كان عليه خطورة كبيرة، إلا إذا كان كما قلنا: هداية ربي، عند فقد المربي، وهو النبي ﷺ فيما لا يقل عن ألف صلاة عليه في اليوم، ومن نعمة الله أن أجاز الشيخ رحمه الله إجازة عامة في كتاب الهداية بالأذكار المعروفة في الطريقة الشاذلية هذه، وهذا من فضل الله لأنه لابد من أن يجيز شيخ، فهو بما ألهمه الله تعالى وفتح عليه فيما رأىٰ أن يجيز في هذا العصر رأفة بحالنا، فالأكابر قد تركونا، ونحن الآن في وحلة كبيرة في هذه الحياة الدنيا، فالحمد لله رب العالمين.

ولذلك من الممكن السير علىٰ الطريق، والله تعالى هو اللطيف بعباده وهو الخبير بهم، وكلما رأىٰ منك الإخلاص والتوجه وخلو القلب من علائق الدنيا كلما ملأ القلب بأنواره تعالى.

الخلوة واحدة من المربيات، كما أن وجود الشيخ من المربيات، والخلوة تربي بما اشتملت عليه من ذكر وفكر، وهكذا نتكلم عن شيء من هذه المربيات التي كانت عندهم في الطريق كالقراءة، والعلم، وذكر سير الصالحين وقصصهم، وغيرها، حتىٰ يرتسم الطريق، وندري معناه، وأركانه، وأحواله، وكيفية السير فيه، ونعرف المشكلات التي نتعرض لها عندما نسير فيه، وكيف نتغلب عليها، وكيف -ونحن في السير إلىٰ الله- لا نلتفت إلا لله، لا نلتفت لكشفٍ، ولا لفتحٍ، ولا لأنوارٍ، ولا لأسرارٍ، ولا لأي شيءٍ، بل ولا للعبادة



نفسها؛ إنما الله هو مقصود الكل، فكيف نحقق ذلك في حياتنا؟

نحن نتكلم في الطريق إلىٰ الله، وقلنا ملخص ما سبق أن مقصد هذا الطريق هو الله، وأن مقصد الكل واحد وهو الله ﷻ، وأن الإنسان وهو يسعىٰ إلىٰ الله في طريقه، ينبغي ألا يلتفت إلىٰ شيء سواه، وأن السالك في الطريق ينبغي أن يكون له شيخ يرشده، وأثناء هذا الطريق يمكن أن تنكشف له أسرار الملك، أو أسرار الملكوت، ويمكن أن تتنزل في قلبه أنوار الملك، أو أنوار الملكوت، وأنه ينبغي إذا تعلق قلبه بالله تعالىٰ ألا يلتفت إلىٰ شيء من ذلك، ولا يشتغل لا بكشف ولا بفتح، ولا يقصد من طريقه تحقيق غاية، لا دنيوية ولا أخروية، إنما يكون مقصوده الأوحد هو الله ﷻ، وهذا هو الإخلاص، فعرفنا من ذلك أن هناك ما يسمىٰ بالملك، والملكوت، والأسرار، والأنوار، وما يشبه هذه المصطلحات.

ثم تكلمنا عن الخلوة، وعن مراحل الطريق، وعن تدرج المريد والسالك في تلك المراحل، وأنه يسير فيها كالدائرة، يبدأ من كونه عاميًّا، ثم يرتقي إلىٰ كونه خاصًّا من الخواص، ثم بعد ذلك يصل إلىٰ مرتبة خواص الخواص، حيث يتشابه في مظهره بالبداية، ولكنه يكون في النهاية، وفي كلامنا عن الخلوة تكلمنا عن الذكر، وعن الفكر، وأن الإنسان في الخلوة يذكر ربه، ويتفكر في ملكوته، وفي كونه يفنىٰ عن نفسه، ثم يفنىٰ عن هذا الفناء، فيرجع مرة أخرىٰ تحت قهر الله ﷻ.





(باب)
فيه عودة إلى الكلام عن مراتب النفس، وأثر ذِكْر الله تعالى في ترقّي النفس وصفائها

والآن نتكلم عن نفس الإنسان، فنفس الإنسان التي بين جنبيه تمر بمراحل سبعة: **المرحلة الأولى:** نسمي فيها النفس بالنفس الأمارة بالسوء، والنفس في هذه المرحلة لا تكون في درجة واحدة، بل قد تكون في شرِّ أحوالها، وهي حالة الكفر، حيث يكفر بالله ﷻ وينساه، وينكر وجوده، ويحجب عنه، وقد يؤمن، وتنازعه نفسه في المعصية، فيفعل المعصية، وينسىٰ الأمر والنهي بالكلية، ويعيش حياته مع إيمانه بوجود الله وبأنه يرسل الرسل، وينزل الكتب، ويشرّع الشرائع، وأننا سنعود إليه ﷻ في يوم آخر للحساب للعقاب والثواب، يؤمن بكل ذلك! فهو مسلم إلا أنه عاقٌّ، وهذا العصيان يحجبه عن الله ﷻ، وكلما أراد أن يخرج من عصيانه -وهذه درجة أخرىٰ- فإنه يعود بسهولة إلىٰ المعصية، من غير التفات إلىٰ ثواب الله ولا إلىٰ عقابه، ولا إلىٰ سخطه ولا إلىٰ رضاه، فهذه المرحلة نسميها بمرحلة النفس الأمارة بالسوء.

وكلمة أمَّارة علىٰ وزن فَعَّالة، وهذا الوزن في اللغة العربية يقتضي التكرار، أي أنها تأمر بالسوء، ثم تعود فتأمر بالسوء، ثم تعود فتأمر بالسوء، ثم تعود فتأمر بالسوء وهكذا، فالنفس الأمَّارة وليست الآمرة، فالآمرة تأمر بالسوء مرة وتنتهي، ولذلك قالوا: إن تسلط النفس علىٰ الإنسان ليس كتسلط الشيطان، والفرق بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس: أن النفس تعاود الأمر بالمنكر



مرات، ولكن الشيطان يلقيه مرة ثم لا يعود بعد ذلك، أخذوا ذلك من صيغة المبالغة الموجودة في قوله ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[1] لم يقل: لآمرة بالسوء، إنما قال: (أمَّارة)، أي أنها ترجع مرة بعد مرة بعد مرة بعد مرة تأمر بالسوء، ولذلك فإن الإنسان لو وجد خاطرًا في قلبه يدعوه إلىٰ الشر، فنفاه، وأزاله، وحاول ألا يستمع إليه، فوجده مرة أخرىٰ يُلّح عليه فقاومه، فألح عليه مرة ثالثة؛ يعلم أن هذا من نفسه، ولو أنه قد أُلْقِيَ في خاطره شيء يدعوه إلىٰ الشر فاستعاذ بالله منه فوجده انصرف، فليعلم أن هذا إلقاء من الشيطان.

ولذلك فإن الشيطان أمره سهل؛ لأنه يزول بمجرد الاستعاذة بالله تعالىٰ، فنحن نلوذ بالله تعالىٰ فيصرفه عنا، يكفي فيه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فإذ به ينصرف، ولا يعود مرة ثانية؛ لأنه لا سلطان له علىٰ الإنسان، ولأنه إنما سُلِطَ علىٰ الإنسان من قبيل الفتنة وليس من قبيل التحكم في بني آدم.

إنما الخطورة عندي، وأعدىٰ أعدائي هي نفسي التي بين جنبيّ، ولذلك بعضهم قال: إن الحجاب الأعظم هو النفس، والحجاب هو الذي يحول بيننا وبين الوصول إلىٰ الله، وبيننا وبين تخلية قلوبنا من القبيح، وبيننا وبين تحلية قلوبنا بالصحيح، وبيننا وبين تَنزُّل الأنوار، وبيننا وبين تكشُّف الأسرار، وبيننا وبين تعلم الأدب مع الله ﷻ، كل ذلك من النفس والتي تحول بين الإنسان وبين أن يتعلم هذا، فالنفس الأمارة بالسوء ينبغي علينا أن نزيلها وأن نمر علىٰ تلك المرحلة بسلام، وبدايات ذلك هو سلوك طريق الله ﷻ، وأن نزيل أنفسنا من هذه المرحلة، وندخل إلىٰ المرحلة التي بعدها.

---

(١) سورة يوسف، آية: [٥٣].



وقد رسم العلماء من أهل الله تعالىٰ لذلك طريق النفي والإثبات: (لا إله إلا الله) فلا إله إلا الله فيها نفي وفيها إثبات، فيها دلالة علىٰ العدم وفيها دلالة علىٰ الوجود، وهذا هو حقيقة الخلق، فقد كان الخلق عدمًا، يقول رسول الله ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»[1] ولم يكن شيء معه، يعني الخلق لم يكن موجودًا مع الله ﷻ، ولذلك قالوا: إن الله له صفات، هذه الصفات منها ما يسمىٰ بصفات الأفعال، ومنها ما يسمىٰ بصفات الذات؛ صفات الذات قديمة بقدم ذاته ﷻ: كالقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والحياة، والكلام، وهو حي أزلًا من غير بداية وعالم وقدير، وكل هذه الصفات هي قائمة به ﷻ منذ الأزل.

وهناك صفات الأفعال، فما الفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال؟ قالوا: صفات الأفعال لا يلزم من نفيها نقص، يعني لو قلنا: إن الله لم يخلق لي حفيدًا. فهل يلزم من هذا نقص للإله ﷻ؟ أبدًا، لم يرزق فلانًا رزقًا واسعًا؟ لا شيء. إذًا الرزق والخلق من صفات الأفعال؛ لأنه لا يلزم من نفيها نقص، وصفات الذات يلزم من نفيها نقص، عندما أقول: إن الله ليس بعالم. لا يجوز.. إن الله ليس بقادر! لا يصح، إذًا فصفات الأفعال هذه لم تكن مع الله أزلًا؛ فالله كان ولم يكن خلق، وكان ولم يكن رزق، وكان ولم يكن إحياء، وكان ولم يكن إماتة، نعم؛ لأن هذه الأشياء نفيها لا يلزم منه نقص، لكنه كان عالمًا قادرًا مريدًا حكيمًا سميعًا بصيرًا، وهكذا، منذ الأزل، وإلىٰ الأبد، لا يحيط به زمان، ولا يحده ﷻ مكان.

(١) رواه البخاري في صحيحه: (١١٦٦/٣)، وابن حبان في صحيحه: (١١/١٤)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ: (٢/٩).



أما أسماء الأفعال فلا، أسماء الأفعال توجد عندما يريد ﷻ فيخلق الخلق بعد أن لم يكن، ويرزق الناس بعد أن لم يرزق، ويميتهم بعد أن أحياهم، ويفعل ما يشاء و﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1] إذًا فلابد أن نعرف ربنا ﷻ بالغنىٰ، والقدرة، والإرادة، والبقاء حتىٰ نعرف أنفسنا، لأننا علىٰ أضداد ذلك، قالوا: (من عَرَفَ نفسه فقد عَرَفَ ربه)[2]، أي: من عرف نفسه بالعجز والفناء عرف أن الله بخلاف ذلك، وأنه ﷻ باقٍ، عالٍ، قدير، مريد، حكيم، لا نهاية لذلك كله في شأنه، ولكننا لنا النهاية، فالنفس أمارة بالسوء، تعيد هذا الأمر، فينبغي علينا أن نعالجها بالنفي والإثبات.

ولا إله إلا الله وهي أول الذِّكْر؛ لأن الأمر هنا أمر عبادة، والمقصود فيه هو الله، والمقصود فيه هو تحقيق نتيجة، أي أن نحقق نتيجة في سعينا إلىٰ الله، وما النتيجة؟ هي تعلم الأدب مع الله، والقضاء علىٰ رعونات النفس، وتدرجها في مراقي العبودية، هذه هي النتيجة التي إذا ما حَصّلْناها نكون قد نجحنا وأفلحنا، وإذا لم نحصِّلها نكون ما زلنا في أول الطريق، فكان أهل الله في البداية يقولون: نذكرها ثلاثين ألف مرة، فلما وجدوا الناس قد تعلَّقت قلوبهم بالدنيا، ورأوا أحوالهم اختلت علىٰ أسوأ ما يكون الاختلال، وكل عصر يأتي تزداد ظلمته عن العصر الأول حتىٰ تقارب العصر علينا، فقديمًا كان الناس يُفرِّقُون بين أوائل حياتهم وأواخرها، فيلحظون فارقًا بعد خمسين أو ستين سنة، يقول أحدهم: هذا العصر الذي أعيش فيه أسوأ من العصر الذي كنت فيه شابًا، أما الآن فإنه في كل سنة تختلف الأمور علىٰ قلب المؤمن، ويرىٰ أنه يُظْلِم كل سنة، وليس

---

(١) سورة الأنبياء، آية: [٢٣].

(٢) من كلام الإمام يحيىٰ بن معاذ الرازي، وللحافظ السيوطي كتاب مستقل اسمه: (القول الأشبه، في قولهم: من عرف نفسه فقد عرف ربه) وهو مطبوع.



في كل خمسين ولا ستين ولا مائة كما كان من قبل، يرىٰ أن العصر يظلم كل سنة! والنبي ﷺ يقول: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١)، ويقول: «**مَا مِن زَمَن يَأْتِي إِلّا الَّذِي بَعْدَهُ أَشَر مِنْهُ**»(٢).

نعم قد يكون أحسن منه في الطرقات، والصحة، والتعليم، والصناعة، والاقتصاد وهكذا، ولكنه أسوأ منه من الناحية الروحية، ومن ناحية اتصال العبد بربه، ومن ناحية خلو قلب العبد من الدنيا، ومن ناحية تمكن العبد من عبادة الله ﷻ علىٰ ما يرضي الله ويبعد عن سخطه، كل هذا يسوء الإنسان فيه، حتىٰ إننا يحال بيننا وبين قلوبنا، ويحال بيننا وبين عباداتنا، وذلك من هذا الجو الذي يسوء يومًا بعد يوم من شدة الشرور إلىٰ أن يخرج الدجال.

والدَّجال هذا مثال لكل تلك الشرور مجتمعة لأنه يَدَّعي أنه الله، والله -جل شأنه- يجري علىٰ يديه الخوارق؛ يجعله ينظر إلىٰ السماء فيزداد فيها الغيم، فيشير إلىٰ الغيم فينزل المطر، ويرفع يده فتنبت الشجر وهكذا، فالناس تصدق أنه الله، إلا المؤمن؛ فإن المؤمن يرىٰ بين حاجبيه كلمة: (كفر) (كـ-ف-ر) يقرأها كل مؤمن، قارئ أو غير قارئ، أي أنه حتىٰ الأمِّيّ من المؤمنين يقرأ تلك الكلمة، إن هذا أمر متعلق بالإيمان، فمن كان في قلبه إيمان نظر إلىٰ وجهه فوجد كلمة (كفر) مكتوبة بين عينيه، فالإيمان إذًا يحميه من هذا الدجل.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح: (٢/٩٣٨)، ومسلم في صحيحه: (٤/١٩٦٤)، والحاكم في المستدرك: (٣/٢١١)، وابن حبان في صحيحه: (١٥/١٢١)، والبيهقي في السنن: (١٠/١٢٢)، والترمذي في السنن: (٤/٥٠٠).

(٢) رواه البخاري في الصحيح: (٦/٢٥٩١)، وابن حبان في صحيحه: (١٣/٢٨٢)، والترمذي في سننه: (٤/٤٩٢).



والله جل شأنه كامل، وهذا ناقص، فالمسيح الدجال أعور، فإذا كنت تنزل المطر وتطلع الشجر فأصلح عينك، فسيدنا رسول الله ﷺ قد قال: «إِنِّي لأُنْذِرُكُمُوهُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَهُ قَوْمَهُ، وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلًا لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ، إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[1] يعني أن الله كامل وهذا ناقص، وهلا كان ينفع نفسه إن كان يدعي قدرة، مثل هذا الصيدلي الذي يبيع دواء لإذهاب الصلع وخروج الشعر وهو أصلع! لِمَ لم ينفع نفسه، كان يضع هذا الدواء لو كان نافعًا، كيف حدث هذا؟!

الأعور كذلك. هذا أمر أنتم تضحكون لكنه يخيل علىٰ كثير من البشرهذا الدجل: أن الله معه شريك، أو أن الله قد نزل إلىٰ الأرض وصلب، أو أنه كذا وكذا.. هذا كلام تخاريف ولكنه يخيل علىٰ البشر.

الحاصل أننا مع ذكر لا إله إلا الله، نتذكر النفي الذي يدل علىٰ العدم، ونتذكر النفي الذي يدل علىٰ التخلية ،تخلية القلب،ونقيه من كل قبيح، ونتذكر النفي الذي يدل علىٰ انتفاء النفس في مقابلة الله؛ لأن الله هو الباقي وأنا فانٍ، كل هذه المعاني أتذكرها عند قولي: (لا إله)؛ لأنني أنفي وأعدم وأخلي قلبي ونفسي وكياني مما سوىٰ الله من العالم، ثم يأتي الإثبات الدال علىٰ الوجود، وعلىٰ التحلية، كأنني أقول: (لا إله) في قلبي، ثم إني بعد ذلك أستحضر الله في قلبي، أو: (لا إله) في قلبي أي أنني خليته من هذا، أو: (لا إله) في نفسي لأنني خليت نفسي من هذا، فـ: (لا إله) تدل علىٰ العدم

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: (٣/١١١٣)، ومسلم في صحيحه: (١/١٥٥)، والضياء المقدسي في المختارة: (٣/١٩١)، والحاكم في المستدرك: (١/٧٦)، وابن حبان في صحيحه: (١٥/١٨٣).



الذي كان قبل الخلق فخلق الله، وتدل على العدم الذي يتلو الخلق بأمر الله، كل هذا النفي يذكرني بهذه المعاني، ثم بعد ذلك يأتي الإثبات، يأتي التحقق وتأتي التحلية، يأتي ملء القلب بهذه الأنوار الربانية، والمنح الصمدانية، التي تنير للمؤمن طريقه مع الله ﷻ، فكانوا يجعلونها ثلاثين ألفًا، لكنهم لما وجدوا الناس قد انشغلوا جعلوها مائة ألف وزيادة، هذه المائة ترقق قلب الإنسان للذكر، ثم نحن نذكر على قدر الطاقة، نذكر كل يوم خمسمائة، أو ألفًا، أو ألفين، أو ثلاثة، أو عشرة، على قدر ما يستطيع الإنسان وحسب ظروفه، فلو ذكرت كل يوم خمسمائة فإنك تنتهي منها في مائتي يوم، وهو ما يعدل ثمانية شهور، ولو ذكرت خمسة آلاف مرة في اليوم ستنتهي في عشرين يومًا، إذًا هذا حسب الطاقة، إنما أنا أحضر السبحة التي لها عداد -حتى لا ينشغل قلبي بالعدد- ثم أبدأ في الذِّكر (لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله) متتالية حتى أتم المائة.

وهذه عبادة، فينبغي أن تكون بهدوء وبتدبر، وليس بجريان اللسان مع السهو، وعدم الالتفات والتركيز، لكن حتى لو وقع كذلك، ولو كان بمحض اللسان أيضا فإننا نستمر في الذكر؛ لأن ذكر اللسان عليه ثواب حتى لو انشغل القلب، فما بالكم لو أن القلب لم ينشغل؟! فأنت توفر بالحضور مراحل كثيرة من حياتك.





(باب)

من قواعد الطريق إلى الله: أن خلوتنا في جلوتنا ،ومعنى ذلك.

ومن الأسس أن: (خلوتنا في جلوتنا)، أي أن التسبيح في الخلوة التي ينفرد فيها الإنسان مع نفسه، والتي تكون بالليل أفضل من خلوة بالنهار، والتي تكون علىٰ وضوء أفضل ممن لا يكون كذلك، والتي فيها لبس البياض أفضل من لبس غيره، وكل هذه الأشياء هي مساعدات وليست هي الأصل، ولكن حسب طاقة الإنسان وحسب مقدرته وحالته، والمهم ألا نترك الذكر، وأن نلهج به، وأن نستمر، كما جاءه من يقول: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ؟ قَالَ: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ**»[1].

ثم إن اللسان إذا اشتغل بذكر الله تعالىٰ جف، واحتاج الإنسان من كثرة الكلام لشرب الماء، ولكن يسمي رسول الله ﷺ ذلك الجفاف: رطوبة. هو لا يقصد أن الإنسان عندما يذكر الله كثيرًا يحدث رطوبة، أبدًا، بل يحدث جفاف، ولكن هذا الجفاف ما ألذه!! هذا الجفاف هو عين الرّي، وهو عين الرطوبة، هذا الجفاف هو الحلاوة والجمال، فالنبي ﷺ يقول: «**لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللهِ**» أي: اذكر الله إلىٰ أن يجف لسانك، فإذا جف فهذا عين الرطوبة، كما يقول ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ**

(١) رواه ابن حبان في صحيحه: (٩٦/٣)، والضياء المقدسي في المختارة: (٦٠/٩)، والحاكم في المستدرك: (٦٧٢/١)، وابن ماجه في سننه: (١٢٤٦/٢)، والترمذي في سننه: (٤٥٨/٥).



عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[1]؛ لأن فم الصائم من كثرة امتناعه عن الطعام يحدث فيه رائحة كريهة، ولكن هو يقول: إن هذه الرائحة لا تكون كريهة عند الله، بل هي أحلىٰ عند الملائكة وأعلىٰ من ريح المسك، فهذا كأنه من الأضداد، كأنها: (وبضدها تتميز الأشياء)، قال الشاعر:

ضدان لما استجمعا حَسُنا * والضِّدُّ يظهر حُسْنَهُ الضِّدُّ

فهذا الذكر ينبغي أن نستمر عليه مائة ألف مرة، وهذا مختص بالنفس الأمارة بالسوء.

وقد قلنا قبل ذلك: إن هناك سبعين ألف حجاب -عن أنوار الله- للنفس الأمارة، وليست تلك الحجب كلها من شأن النفس الأمارة، بل للنفس الأمارة منها عشرة، وللنفس التي بعدها عشرة وهكذا، فالسبعون ألف حجاب للنفوس السبعة.

فهنا بعد النفس الأمارة بالسوء يترقَّىٰ مع هذا الذِّكْر إلىٰ النفس اللوامة، والنفس اللوامة فيها منازعة، فهي تلوم الإنسان عن أن يفعل الشيء، ولكنه بعد فترة يفعله، فتلومه مرة ثانية فيفعله، ثم يترك، ثم يفعل، وهكذا، النفس الأمارة ربما وصلت إلىٰ مُنْحَطِّ الكفر والعياذ بالله، وأعلاها يكون علىٰ بداية طريق الله ﷻ من المؤمنين العصاة، ثم إن النفس الأمارة تنتهي، ويدخل السالك بعدها في نفس هي تلوم، وتكرر عليه اللوم، فهو ليس خالصًا ولا مطمئنًا في طاعته؛ وكلما أراد أن يستقل عن معصيته، وأن يخرج عنها، إذا به يعود إليها،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: (٢/٦٧٠)، ومسلم في صحيحه: (٢/٨٠٧)، وابن حبان في صحيحه: (٨/٢١٠)، وابن خزيمة في صحيحه: (٣/١٩٦).



فهذه النفس اللوامة، ووضعوا لها ذكرًا وهو: (الله)، لفظ الجلالة المفرد، ولفظ الجلالة المفرد أهل الله كلهم يعتبرونه، ويعملون به، ولكن بعض الناس يشككون في الذكر به! فاستدلوا من ناحية الشرع بأمور منها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]، فكلمة: (الله) جاءت مفردة، وقد أمر ﷺ من قبل أن يقولها وأن لا يتعداها، يعني إذا مَرَّ بالمشركين قال لهم: الله، وتركهم ومضى، فالنص هكذا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ فقالوا: إن هذا مبتدأ وله خبر، والخبر محذوف، كلام لا معنى له! واستدلوا عليه أيضًا بحديث رسول الله ﷺ أنه قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ اللهُ اللهُ**»[2]، وهذا الزمن النكد جاء فيه: «**لا تقوم القيامة إلا على لُكَع بن لُكَع**»[3]، فهذا الزمن النكد لا يُقال فيه في الأرض: (الله، الله).

إذن كأنها كانت تقال عند المسلمين قبل فنائهم، أو قبل قلتهم، أو قبل ذهابهم، على ما بشَّرَ به رسول الله ﷺ من أن ريحًا طيبة تأخذ أرواح المؤمنين أو تأخذ المؤمنين من تحت آباطهم، قبل يوم القيامة، أي أنه قبل يوم القيامة سيموت كل المؤمنين والحمد لله رب العالمين، حتى لا تقوم القيامة إلا على لكع بن لكع، يعني ليس في الجيل الأول، بل الجيل الثاني أو الثالث أو كذا

---

(١) سورة الأنعام، آية: [٩١].

(٢) رواه مسلم في صحيحه: (١/١٣١)، وابن حبان في صحيحه: (١٥/٢٦٤)، والترمذي في السنن: (٤/٤٩٣)، والحاكم في المستدرك: (٤/٥٣٩)، وأبو يعلى في مسنده: (٦/٢٣٤) عن أنس، ورواه الحاكم في المستدرك: (٤/٥٣٩) أيضا عن ابن مسعود.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه: (١٥/١١٦)، والمقدسي في المختارة: (٧/٢٧٣)، والطبراني في الأوسط: (١/١٩٧) عن أنس، ورواه الترمذي في السنن: (٤/٤٩٣) عن حذيفة، ورواه الطبراني في الأوسط عن أبي ذر: (٣/٢٥٧).



إلىٰ آخره، حيث لا يقال في الأرض: (الله، الله)، فلفظ الجلالة هذا يُذكر أيضًا مائة ألف مرة، وكان له عدد في القديم، إلا أنهم أيضًا عدلوا عن الأعداد القديمة إلىٰ أعداد جديدة لِما ذكرناه؛ فالمائة ألف هذه يعدُّها العادُّ.

ونصح أهل الله بألا يذكر هذا الاسم والإنسان عنده ارتفاع في درجة الحرارة، أي أنه يوقفه إذا ما كانت عنده حمىٰ؛ لأن الذكر بهذا الاسم يرفع درجة الحرارة، ولذلك الذكر بـ: (الله) لا يناسب المحموم، وقد يميته إذا كان صادقًا في ذكره، ولذلك أيضًا من لم يدخل الطريق يستعمل خصائص الأسماء الحسنىٰ في نتائج كونية، منها هذا؛ فلو كان يشعر بالبرد فيذكر بـ: (الله) فيدفأ، ولكن هذا ضد الإخلاص؛ لأننا في الحقيقة لا نذكر من أجل تحصيل نتيجة، إنما نذكر لأننا نحب الله ﷻ من قلوبنا، وهو حقيق بهذا الحب، وحقيق بذلك الذكر، فالذي يذكر شيئًا ويريد بهذه الخصائص أن يصل إلىٰ شيء ما سيصل، ولكن ثوابه قد عُجِّل له في الدنيا، ونسأل الله السلامة.

أي أن الأصل أنه لا ثواب له عند الله في الآخرة، فإن أعطاه الله فتفضلًا من عنده ﷻ، ولا يتألىٰ علىٰ الله أحد، أي أننا لا نستطيع أن نقول أن لا ثواب له، ولكن هو ليس له عند الله شيء؛ أثابه الله أو منعه فالله حقيق بكل فضل ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] أي يعلم مَن هذا، وما نيّته، ولِمَ فعل ولِمَ ترك؟ وحكيم في توزيع الثواب علىٰ ما تم وعلىٰ ما كان، فهذا اللفظ لفظ جليل يذكره الإنسان أيضًا في مدة ما يستطيع.

ثم ينتقل بعدها بعد هذا الذكر إلىٰ الضمير الدال علىٰ وجوده ﷻ، ولفظ

---

(١) سورة النساء، آية: [٢٦].



الجلالة كما قلنا غير مرة لفظ عجيب، حتىٰ قال كثير من أهل الله: إنه الاسم الأعظم، وإنما تتخلف الإجابة بالدعوة به لأنه تتخلف شروط الدعاء؛ كأن يكون فيه عدوان، أو ليس فيه خلوص نية، أو أنه يجهل طريقة تلاوته، فلفظ الجلالة عَلَمٌ علىٰ الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد سبحانه، وهو اسم عجيب، لا مثيل له في كل لغات الأرض، فلو حذفت منه الألف لبقي دالًا عليه سبحانه: لأنه يصير: (لله)، ولو حذفنا اللام أصبحت: (له)، ولو حذفت اللام الثانية لبقي: (هو).

تبين لنا إذن أن قلب المؤمن مهبط للأنوار، ومنبع للأسرار، وأن الأنوار والأسرار منها ما هو منسوب إلىٰ الملك، ومنها ما هو منسوب إلىٰ الملكوت، وأن الإنسان في طريقه إلىٰ الله ينبغي ألا يلتفت لا للأنوار، ولا للأسرار، ولا للملك، ولا للملكوت، وأن الله هو غايتنا، وهو مقصود الكل، وأن الإنسان يجب أن يحرر قلبه من كل هذه الغايات والمرادات، ولو كانت فيها لذة، وأن المقصود هو أن يُحصّل الإنسان الأدب مع الله.

وتكلمنا بعد ذلك عن أن أهل الله ﷻ يلجأون إلىٰ الخلوة، وقلنا فيما قلناه: إن الخلوة تعين علىٰ الذِّكْر والفكر، ثم تكلمنا بعد ذلك عن الذكر، وأن هناك ما يسمىٰ بالأسماء السبعة الأصول، وتليها ستة فروع، ارتأىٰ أهل الله أنها ترقي الإنسان في سيره إلىٰ الله تعالىٰ، وتجعله يتغلب علىٰ حجب النفس التي تحجبه عن أنوار الله ﷻ، أو تحجبه في بداية الطريق حتىٰ عن الطريق نفسه، أو تحجبه عن النور، وعن انكشاف أسرار الكون له.

ثم تكلمنا عن: (لا إله إلا الله)، وأنها أول الطريق إلىٰ الله، وأن الشيخ رحمه الله تعالىٰ قد أجاز من يصلح للإجازة بأن يشتغل بهذا الذكر.



ونحن لا نتتبع مراتب النفس السبعة التي أشرنا إليها، ولا هذه الأسماء السبعة، ولا كيفيتها؛ لأنها مذكورة في كتاب الهداية، ويمكن البدء فيها مع زيادة الإخلاص والتوجه والانقطاع لله ﷻ حتىٰ تؤتي هذه الأذكار أثرها في قلب المؤمن، فتخلصه إلىٰ عبادة الله وحده سبحانه، فسبق الكلام علىٰ النفس، ومراحلها، ودرجاتها، وقد أشرنا إليها بالإجمال، وسبق الكلام عن الذِّكْر.



(باب)
في التفكُّر ومعناه ،وأثره في السير إلى الله تعالى

ونتكلم الآن علىٰ قضية الفكر، حيث قلنا: إن الخلوة فيها ذِكْر وفيها فكر، أما الذِّكْر فقد أشرنا إليه، وإلىٰ طرف منه، وكيف يكون، ثم نحن هنا نتكلم عن الفكر، والفكر أيضًا هو لله ﷻ، وهذا الفكر ينبغي أن يكون في ملكوت الله، وفي ملك الله، في السموات وفي الأرض، في النفس، وفي الحيوان، وفي النبات، وفي كل شيء يتأتىٰ للإنسان أن يستشعره، وأن يدركه، وأن يفهمه، وأن يعلمه، وأن يطلع عليه، وأن يُحصّل معناه، أي أن يتفكر الإنسان في كل شيء.

ولا بد من أن يؤدي هذا الفكر إلىٰ علم، وهذا العلم يؤدي إلىٰ يقين، وهذا اليقين يؤدي إلىٰ مشاهدة، وهذه المشاهدة تؤدي إلىٰ حضور، وفي الحضور أنس بحضرة القدس، والأنس بالقدس أمر هو في نهاية الفكر، أي أن الفكر سيوصلنا إلىٰ حضرة القدس ﷻ، فهذا هو هدف الفكر.

وليس هدف الفكر التكبُّر علىٰ الناس، ولا هدف الفكر الاعتزاز بالنفس، ولا هدف الفكر الضلال، ولا هدف الفكر الإيذاء، ولا هدف الفكر التعالي؛ بل إن هدف الفكر دائمًا هو الله.

فينبغي علينا أن نوجه فكرنا ليدفعنا إلىٰ الله، وكل شيء حولناه إلىٰ دلالة علىٰ الله في أنفسنا صار علمًا، وكل شيء لم يكن كذلك لا يكون علمًا، إنما يكون معرفة لا تنفع، والجهل بها لا يضر.



النبي ﷺ وجد رجلًا يلتف حوله الناس، فقال: (ما هذا؟) كأنه تعجب من التفات الناس واهتمامهم بذلك الرجل، لم يقل: من هذا؟ بل قال : ما هذا؟ يعني الذي يتم من وقوف رجل في وسط حلقة، هذا الرجل يتكلم، ويستمع إليه الناس، ويتكوكبون عليه، قالوا: هذا علامة. قال: (وما علامة؟!) قالوا: يعرف أنساب العرب، وأيامهم، وحروبهم، وقتالهم، ومشاهدهم، ولغاتهم، وأشعارهم، قال: «**الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ، وَمَا سِوَىٰ ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ، أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ**»[1]، هذا هو العلم الموصل إلىٰ الله ﷻ، لا الذي يؤدي إلىٰ التفاخر بين الناس، ولا إلىٰ الاعتزاز بالنفس، ولا إلىٰ التكبر والتعالي، ولا إلىٰ الإيذاء، ولا إلىٰ الفساد في الأرض، فكل علم وصل إلىٰ الله ووجد الإنسان نفسه يسبح ربه بعده ويقول: سبحان الله الخالق العظيم، ويرىٰ أن كل شيء في الكون وراءه قدرة الله ﷻ كما قال قائلهم:

وفِـي كُـلِّ شـيءٍ لـه آيـة　　*　　تـدلُّ علـىٰ أنَّـهُ الواحِـد

وعليه فإن السالك في سيره إلىٰ الله تعالىٰ ينظر، ويتأمل، ويتفكر، ويستنبط من هذا الترتيب العجيب، في العالم العلوي، والعالم السفلي، ما يوقن معه في الله ﷻ يقينًا لا يتزعزع، لا يكون بعده فيه ريب، ويتفكّر في مخلوقات الله تعالىٰ، ويتفكّر في نفسه، وقديمًا قالوا: (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

الإنسان يتفكر في نفسه فيجد نفسه لها بداية، وهذه البداية كانت بداية مجهولة، هو لا يتذكرها؛ إذ لا يتذكر الإنسان متىٰ ولد، وهذه البداية ضعيفة؛ لأنه كان ضعيفًا قبل أن يستقلَّ بقضاء حوائج نفسه، وكان محتاجًا إلىٰ الغير

(١) رواه الحاكم في المستدرك: (٣٦٩/٤)، وأبو داود في سننه: (١١٩/٣)، وابن ماجه في سننه: (٢١/١)، والبيهقي في السنن الكبرى: (٢٠٨/٦)، والدارقطني في سننه: (٦٧/٤).



احتياجًا تامًا، لا يستطيع حتىٰ أن يأكل، ولا أن يشرب، ولا أن يتداوىٰ، ولا أن يُذْهِبَ عن نفسه أي ضرر، فهو عبارة عن قطعة من اللحم في يد أمه، وهو محتاج إليها الاحتياج التام، والله ألقىٰ في قلوب الأمهات الشفقة من أجل هذا الاحتياج التام، وفيه إشارة إلىٰ أن الإنسان حينما يحتاج إلىٰ ربه فالله رءوف.

فالإنسان يحتاج إلىٰ غيره ابتداءً؛ والله يشير إليك بأنك في بداية طريقك في هذه الحياة الدنيا كنت تحتاج احتياجًا تامًا، وما زلت تحتاج في وجودك إلىٰ الله.

إذا تأملنا الأمهات في بني الإنسان، أو في الحيوان، أو في الطير، أو حتىٰ في النبات وجدناها تحنو علىٰ أبنائها، وتتعلق بها تعلقًا شديدًا يخرجها حتىٰ من التصرفات العاقلة، وتلك الشفقة شفقة عظيمة يُضْرَبُ بها المثل، فالله ﷻ أحنّ علينا من حنان الأم علىٰ ولدها؛ لأننا ليس لنا في الكون إلا هو ﷻ، وليس لنا اعتماد في هذا العالم، لا في وجودنا، ولا في بقائنا، ولا في استمرارنا، إلا علىٰ الله، وهو عظيم، ورحيم، ورءوف، وهو ﷻ لا يخيب حالنا هذا، حتىٰ الإنسان الكافر الذي يولي ظهره عن الله، كالابن العاق الذي يعقُّ أباه ويعق أمه، فإن الأم لا تستطيع أن تتخلىٰ عنه علىٰ الرغم من أنها قد تضربه، وقد تؤدبه، وقد تدعو عليه، ولكنها لا تستطيع أن تخرجه من قلبها، وكلما وجدت له عذرًا -أي عذر- فإنها تبادر إليه، وتقبل عذره، وتضمه إليها، وهذه إشارة إلىٰ أن المحتاج إليه هذا شأنه عند الله، فما بالكم برب العالمين! فالإنسان إذا تفكر في نفسه، وعرف فيها الضعف والحدوث، تيقن من أن ربه قائم بنفسه لا يحتاج إلىٰ غيره، قوي لا بداية له، ولا نهاية له، وأنه ﷻ سيقبل من يرجع إليه، وسينظر إليه بنظر الرحمة، وسينظر إليه بنظر الرأفة، وأنه مهما



تاه الإنسان، وضل في ضلال الحياة، ثم رجع إلىٰ ربه سيجد الله ﷻ عنده، وسيجد الله ﷻ رءوفًا، رحيمًا، عفوًا، غفورًا، يأخذه بأحنِّ مما تأخذ الأم ولدها الضائع، أو العاق، أو ولدها الذي يرجع إليها.

الفكر يؤدي بالإنسان إلىٰ أنه محتاج في قيامه بنفسه إلىٰ غيره؛ ولذلك لا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن الطعام، ولا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن الشراب، ولا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن النوم، ولا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن قضاء الحاجة، ولا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن الناس، ولا يستطيع أن يمتنع بالكلية عن أشياء كثيرة، إذًا هذا الإنسان مستمر في ضعفه، وهذا الإنسان محتاج إلىٰ غيره، وهذا الإنسان محتاج إلىٰ أشياء قائمة به، والله ﷻ علىٰ عكس ذلك، ولذلك فهو قائم بنفسه، لا بداية له، ولا نهاية له؛ لأنه كما سنرىٰ من الفكر أن الإنسان يعتريه الموت، وتعتريه الأطوار، وهو داخل في حد الزمان، وفي حد المكان، ولكن الله لا زمان يحيط به، ولا مكان يحدّه، ولا شيء يسيطر عليه أو يقهره، ولا شيء يعتمد عليه ﷻ، إنه سبحانه إذا أراد شيئًا يقول له: (كن) فيكون، السموات والأرض يقول لها: (كن) فكانت من غير عناء ولا تعب ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[1] أي أنه: ما أصاب الله ﷻ في خلق السموات والأرض أمرًا من عنده وصدورًا من جلالته ﷻ -أي تعب، ولا أي لغوب.

الإنسان يتفكر في مولده، وفي حياته، وفي مماته، وفي كل شيء، فإذ به يرىٰ الله ﷻ في مقابل ذلك كله، فإذا فعل الإنسان ذلك في الفكر لا يعتريه الريب، ولا تهجم علىٰ قلبه الشكوك، وتراه مطمئنًا بذِكْر الله، فالذِّكْر والفكر

(١) سورة ق، آية: [٣٨].



يكونان الدعامة الأساسية لهذا الطريق مع الله، لا تهتز له عندما تصيبه مصيبة جامحة، ولا يضطرب، ولا يسقط في وهنة الجزع، الإنسان إذا ما تيقن بهذا الفكر تيقن أن الله متصف بالصفات العلىٰ، والصفات العلىٰ لخصها الله ﷻ في الأسماء الحسنىٰ، والأسماء الحسنىٰ كثيرة خصّ النبي ﷺ منها مائة وقال: «**إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1]، وقد ذكرها أبو هريرة في روايته عن رسول الله ﷺ، ولكن عندما قال الله في القرآن: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2] لم يحصرها ولم يعدها، ولذلك نجد في القرآن وصفًا لله ﷻ مائة وثمانية وخمسون اسمًا له، في حين أن الحديث لو أننا جمعنا ما ورد فيه برواياته المختلفة وجدنا أنه مائة وأربعة وستون اسمًا، ولو جمعنا هذا مع هذا وحذفنا المكرر يكون نحو مائتين وعشرين اسمًا لله تعالىٰ، ورد في الكتاب والسنة منها؛ القادر، والقدير، والمقتدر، بعضها موجود، وبعضها غير موجود في الأسماء الحسنىٰ التي معنا، وموجودة في القرآن وهكذا.

وانظر إلىٰ جلال القرآن، وعلو قدره، مع كلام سيد الخلق ﷺ؛ سيد الخلق يرشدنا علىٰ التحديد، والله ﷻ واسع يطلق فيقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ لم يتكلم عن عد ولا حصر، والنبي ﷺ يفهمنا ويرشدنا إلىٰ هذا الإطلاق الذي تميز به كلام الله عن كلام سيد الخلق نفسه ﷺ وإن كان مبلغًا عن ربه يرشدنا بذلك فيقول: «...**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ**

---

(١) سبق تخريجه: ص٧٣.
(٢) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].



عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي... الحديث»[1] هذا شأن الله.

وإذا ما تأملنا في أسمائه الحسنىٰ وجدناها علىٰ ثلاثة أضرب: هناك صفات الجلال، وهناك صفات الجمال، وهناك صفات الكمال.

أما صفات الجمال ففيها، الرحمة، والرأفة، والعطف، والمغفرة، وأمثال هذه الصفات التي تدعو الناس إذا ما تخلقوا بها إلىٰ رقة القلوب.

وأما صفات الجلال ففيها القوة والشدة والعزة والقهر والجبروت والملكوت.

وأما صفات الكمال فهي صفات تبين أن الله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2] وأنه متفرد بالجمال والجلال معًا، وأنه يعلو الخلق ويخالفهم، وأنه ﷻ خالقهم وإليه المرجع والمصير.

المؤمن يتخلق بصفات الجمال، لأن الله إنما تجلىٰ علينا في مفتتح كتابه بها فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3] ولم يقل: بسم الله الرحمن المنتقم، فجاء بجمال وجلال، بل تجلّى علينا فقط بالرحمن الرحيم أي بالجمال وحده.

هناك تخلّق وهناك تعلّق؛ فالتخلّق يكون للجمال، والتعلّق يكون للجلال، فلا يتخلق الإنسان بالكبر، الله هو المتكبر العلي، ولا يتخلق الإنسان بالعلو، ولا يتخلّق الإنسان بالانتقام، ولا يتخلّق الإنسان بمثل هذه الصفات العالية الشديدة.

---

(١) سبق تخريجه: ص٧٤.
(٢) سورة الشورى، آية: [١١].
(٣) سورة الفاتحة، آية: [١].



إذًا يتخلق ويتعلق، فإذا ما تخلّق وتعلّق فهذا متصل في القلب، والتخلي والتحلي قلنا قبل ذلك: أن المؤمن ينبغي عليه خاصة في بداية الطريق أن يقاوم نفسه، وأن يخلّي قلبه من كل قبيح، وأن يحلّي قلبه بكل صحيح، فالتخلية والتحلية تتأتىٰ من أجل أن يعيش الإنسان في هذا النور الرباني، تساعده علىٰ ذِكْر الله وعلىٰ التفكُّر السليم.

هناك مرحلة بعد التحلي والتخلي وهي التجلي، وهذه المرحلة هي التي تتعلق بهذا النوع الأخير من الأسماء وهو الكمال، فالكمال لا نتخلّق به، ولا نتعلّق به، إنما هو يتجلّىٰ في القلب، فحتىٰ نخلّي قلوبنا من القبيح، ونحلّيها بالصحيح، فعلينا بالتخلّق والتعلّق، فإن تم ذلك حدث التجلّي الإلهي، وأصبح الإنسان مجلّىٰ لصفات الله ﷻ، وهذا كرم وفيض رباني يتجلّىٰ به ربنا ﷻ علىٰ تلك القلوب النظيفة الطاهرة الشفافة، التي تخلت وتحلت، والتي تخلقت وتعلقت، فيتجلىٰ الله ﷻ بصفات كماله عليها.

من هذه الصفات: (الحكيم)، فنجد أن الإنسان حينئذ وصل إلىٰ الحكمة، وربنا سبحانه وتعالىٰ يجعلها قمة ما يصل إليه الإنسان فيقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1] هذه قمة أن يصل الإنسان إلىٰ مرحلة الحكمة الربانية فيكون حكيمًا، والحكيم إنما يهبه الله سبحانه وتعالىٰ مع عقله ميزانًا يزن به الأمور، وهذا الميزان هو عين الحكمة، والله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾[2] أي أنه أنزل الميزان أيضًا وليس الكتاب فقط، فيكون معطوفًا علىٰ الكتاب في الإنزال؛ فالله أنزل الكتاب وأنزل الميزان؛

---

(١) سورة البقرة، آية: [٢٦٩].
(٢) سورة الشورى، آية: [١٧].



الكتاب يستهدي به سالك الطريق إلىٰ الله، ولكن الميزان أنزله الله وهبًا لا كسبًا يهبه للإنسان فيؤتيه الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

يدخل المسلم الخلوة إذا ما سلك، فإذ به يذكر ويتفكر، الذِّكْر له برنامج وطريق، والفكر له أسس وطريق، وكل هذه الأشياء ترتقي بالإنسان، وتساعده في الطريق، بأن يخلّي قلبه من القبيح ويحلّيه بالصحيح، حتىٰ يصل إلىٰ التخلّق والتعلّق، فيحدث بعد ذلك له التجلي، ويحدث له مقصود الأنس مع الله، فيصل إلىٰ الأنس في حضرة القدس، الكلام في هذا المعنىٰ قليله يكفي وكثيره لا يفيد، لأنه إذا وجد طريقًا إلىٰ قلبك فقد وجد، وإلا، فالله هو الهادي إلىٰ سواء السبيل.

وملخص ما ذكرناه نعيده مرة بعد مرة، حتىٰ يتضح الحال، تكلمنا عن الطريق إلىٰ الله ﷻ وأن هذا الطريق: الله فيه مقصود الكل، وأن الطريق إلىٰ الله واحدة، وأن الخلاف إنما هو خلاف مشارب بين طريقة وأخرىٰ، ولكن الكل كأنهم يقفون علىٰ محيط دائرة واحدة غايتهم جميعًا أن يصلوا إلىٰ مركزها حيث الله ﷻ، كلها متساوية للوصول إلىٰ الله، ولكن تختلف الجهة، ويختلف التوجه، وتختلف مكونات الطريق؛ من الشيخ ومن الذكر ومن الخلوة ومن الجلوة ومن الفكر، ولكن المقصود واحد وهو الله ﷻ.

وقلنا أيضًا: إن الإنسان حينما يسير في الطريق فإنه ينبغي ألا يلتفت إلىٰ ما سوىٰ الله؛ فإن ملتفتًا لا يصل، وقلنا: إن الذي يشغل بال السالك إلىٰ الله قد يكون ملتبسًا عليه بأمور يظنها أنها لله وهي ليست كذلك؛ فتكلمنا عن أن الإنسان يعيش في الملك، وأنه أيضًا قد يدرك الملكوت، وأن عالم الملك إنما هو العالم المحسوس، وأن عالم الملكوت إنما هو العالم الغائب عنه من



الملائكة والروحانيات والجن وغير ذلك، وأن الملك والملكوت مخلوقة لله ﷻ، وأن في الملك والملكوت أسرار وأنوار؛ فهناك أسرار في الملك وأسرار في الملكوت، وهناك أنوار في الملك وأنوار في الملكوت، وكل ذلك سوىٰ الله لأنه من العالم، والعالم سوىٰ الله، فالله رب العالمين، وينبغي علىٰ الإنسان إذا ما فتح عليه أو كشف له سر من أسرار الملك أو الملكوت، أو تنزلت عليه أنوار الملك أو الملكوت ألا ينشغل بها عن الله ﷻ، وألا يقف عندها أبدًا، بل يسعىٰ في طريقه علىٰ ما قد فتح الله عليه من فتح، ولا يلتفت فإن ملتفتًا لا يصل.

وقلنا إن المؤمن السالك ينبغي عليه أن يختبر نفسه في الأدب مع الله؛ فكلما يزيد في الأدب مع الله فهو خير وهو علىٰ خير، وكلما شغله أو لم يزد في الأدب مع الله عنده فهو نافلة من نوافل القول، وزيادة لا يلتفت إليها؛ لأنها تكون شاغلة لسالك الطريق إلىٰ الله.

قلنا: إن الإنسان في طريقه إلىٰ الله إنما يكون في مراحل، وهذه المراحل يقطعها، فيقطع بذلك ويغير بذلك خواطر نفسه، والنفس علىٰ سبعة أنحاء: نفس أمارة بالسوء، ونفس لوامة تلوم صاحبها حتىٰ يرجع، ويؤوب، ويعود، ويتوب إلىٰ الله، ونفس ملهمة، وبعض أهل الطريق يقفون عند هذا، وبعضهم يزيد: النفس الراضية، والنفس المرضية، والنفس المطمئنة، والنفس الكاملة، فتتم السبعة، وقلنا: إن ما بين كل نفس وأخرىٰ حجب، وإن أهل الطريق قالوا: إنها عشرة آلاف حجاب؛ فحتىٰ يصل الإنسان إلىٰ درجة الكمال في عبادته وأدبه مع الله ﷻ، وكأنه ينبغي أن يتجاوز، وأن يمر، وأن يزيل سبعين ألف حجاب.

وقلنا: إن الإنسان قد يصل بعد ثلاثين عامًا، وقد يصل بعد ثلاثة دقائق، فإن



الأمر كله بيد الله، والأمر كله مرده إلىٰ الله، والله ﷻ يؤتي فضله من يشاء، من غير رجوع إلىٰ علم، ولا إلىٰ تقوىٰ، ولا إلىٰ عمل، ولا إلىٰ شيء، إنما يصطفي ﷻ من عباده من يشاء، فهذا وهب وليس بكسب، يفتح علىٰ الإنسان بعد ثلاثين عامًا أو يفتح عليه بعد ثلاثين دقيقة، يجد نفسه قد جُذِبَ إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، فيكون سلوكه منبنيًا علىٰ جذبته، أو أنه يسلك حتىٰ يُجذب، فتكون جذبته منبثقة من سلوكه، فهناك المجذوب السالك والسالك المجذوب.

وقد قلنا: إن الناس علىٰ ثلاثة أنحاء: عوام، وخواص، وخواص الخواص، وأن خواص الخواص شأنهم شأن العوام في ظاهرهم، إلا أن قلوبهم معلقة بالعرش، وقلوبُ العوام معلقةٌ بالدنيا، ولكن هذا يتخذ الأسباب، ويندرج تحتها، ويعمل عمل أهل الدنيا وقلبه معلق بالله، والعامي يفعل أيضًا عمل أهل الدنيا ولكنه قد ينشغل، وهذا ما ذكروه عن سيد الخلق أجمعين عندما سها في الصلاة:

يا سائلي عن رسول الله كيف سها ❊ والسهو من كل قلب غافل لاه
قد غاب عن كل شيء سره ❊ فسها عما سوىٰ الله فالتعظيم لله



(باب)

في أن قلب العبد له بابان: باب مفتوح على الخلق، وباب مفتوح على الحق، وأثر ذلك

تكلمنا علىٰ أن قلب الإنسان له بابان: الباب الأول مفتوح علىٰ الخلق، والباب الثاني: مفتوح علىٰ الحق، وأن الإنسان بين أربعة أحوال: إما أن يغلق عليه البابان، باب الحق، وباب الخلق، فيكون مجنونًا غير مكلف، وإما أن يُغلق عليه باب الخلق ويفتح باب الحق، فيمتلئ قلبه بالأنوار، حتىٰ يُجْذَبَ، ويكون مجذوبًا مختلًا؛ لأن الله ﷻ لم يجعل هذه الحالة حالة كمال، بل جعلها حالة من حالات النقص، وإما أن يُغلق باب الحق ويفتح باب الخلق، فيكون منغمسًا في دنياه، ناسيًا لربه، ليس متذكرًا ولا متدبرًا، وإذا تذكّر تذكّر بلسانه، وإما أن يفتح البابان، وهو شأن العارفين بالله ﷻ، وأن الدنيا بشواغلها ومشاغلها تأتي، فتحاول بتياراتها أن تسد باب الخالق، وهذا ما يسمىٰ بغين الأغيار؛ فالأغيار التي في الدنيا من المشاغل والشواغل تسد علىٰ الإنسان باب الحق، ولكن أيضًا قد يحدث كذلك في باب الخلق، فتأتي الأنوار المتكاثرة، فتسد علىٰ الإنسان باب الخلق، وحينئذ فإنما تحاول هذه الأنوار أن تجعله في درجة أدنىٰ، درجة أقل مما كان هو عليه من قبل.

ورسول الله ﷺ دائم الترقي في كل أحواله ولا ينتقل إلا من راقٍ إلىٰ أرقىٰ، فقد كان يستغفر رسول الله ﷺ ربه من غين الأنوار لا من غين الأغيار؛ يعني أنواره متلألأة في قلبه، حتىٰ يمل الخلق، فيستغفر الله من ذلك الملل؛



لأنه ﷺ مكلف بالهداية، ومكلف بالتبليغ، ومكلف بالإرشاد والصبر على الناس، فكان يستغفر الله من غين الأنوار، لا من غين الأغيار.

وقلنا في هذا الباب: إن الإنسان في هذا الطريق ينبغي عليه أن يذكر الله بصفة معينة مجربة، الذكر أتى به الوحي:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[1]،

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[2]،

﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾[3]... إلى آخر ما هنالك عن طريق الاتصال بربنا سبحانه، عن طريق العبادة، والدعاء، والذكر، وفعل الخيرات، فالإنسان ينبغي عليه أن يذكر ربه في كل وقت وحين.

وجاءت التجربة التي جاءت من أهل الله على مر العصور عندما التزموا بالقرآن وما ورد فيه، وبالسنة وبطريقتها في الذكر والعبادة، تبين لهم طريق قريب للوصول إلى الله، وإلى الأدب معه، فأرشدونا إليه، فتكلمنا عن الأذكار بالأسماء السبعة والأسماء الستة (السبعة الأصول والستة الفروع)، وقلنا: إن هذا إنما هو من باب الذِكْر.

وانتقلنا بعد ذلك إلى الفكر، وقلنا في الذكر والفكر: إنه قد يحدث هذا في الجلوة، يعني مع مخالطة الناس، وقد يحدث في الخلوة.

وتكلمنا عن الخلوة وما فيها من أمور، وما تولده من كشف أسرار وعلوم،

---

(١) سورة غافر، آية: [٦٠].

(٢) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].

(٣) سورة الأحزاب، آية: [٣٥].



هذا ليس ملخصًا فقط وإنما هو أيضًا تذكرة؛ لأن هذه الأمور تغيب، وتتخلف عن الناس، فنعيدها مرة أخرىٰ في سياق واحد، ونسق واحد؛ حتىٰ تثبت في الأذهان، ولكن تحت كل عنوان كلام كثير تكلمناه.

وحتىٰ نستكمل ما نحن فيه من كلامنا علىٰ: الملك، والملكوت، والأسرار، والأنوار، فإننا سنتكلم عن باقي العوالم الخمسة، وهي: الملك، والملكوت، وهما عالمان، ولكن يمكن إدراجهما تحت كلمة: الخلق، يعني تحت كلمة : ما سوىٰ الله ﷻ، أما الله ﷻ فهناك عالم الرحموت، وعالم الجبروت، وعالم اللاهوت؛ فالله ﷻ فيه صفات للجمال هي عالم الرحموت، وفيه صفات للجلال هي عالم الجبروت، وفيه صفات للكمال وهي عالم اللاهوت، مع العالمين الملك والملكوت يصبح خمسة: ثلاثة مردها إلىٰ الله الواحد الأحد، واثنان مردهما إلىٰ الخلق.

هناك اتصال بين الإنسان وبين ربه علىٰ خمسة أنحاء أو مراتب، يسميها أهل الطريق: (اللطائف الخمسة)، وهي: (القلب، والروح، والسر، والخفي، والأخفىٰ)، وهي في عالم الملك الذي نعيش فيه، ذلك العالم المرئي، ذلك الكون الذي يمكن أن ندركه بالحس، هذه الخمسة متدرجة، ولها خمسة أخرىٰ مقابلة، فوق هذه الخمسة التي هي في عالم الملك، مثلها تمامًا كالمرآة في تصويرها في عالم الملكوت، فيصبح معنا عشر درجات: خمسة في الملك.

وخمسة في الملكوت، ثم بعد ذلك هناك أمور مردها إلىٰ العوالم الثلاثة: عالم الجبروت، وعالم الرحموت، وكذلك إلىٰ عالم اللاهوت، وهي نهايتها، فتكون ستة، فتصبح المراتب ست عشرة مرتبة.



هذا غاية ما عبّر عنه المعبرون من أهل الله، وهناك أسرار ترد للذّاكِرين المتفكِّرين في طريق الله لا يحسنون الكلام عنها، إنما يشعرونها فقط ولا يجدون تعبيرًا في اللغة يساويها فيسكتون لأنها تصبح مسألة خاصة، وإذا ما وصل أحدنا إليها فإنما يصل إليها بفضل الله، ولذلك لا يحتاج إلى قراءة ولا إلى تعليم، إنما هو سيصل إليها مطمئنًا إذا ما سار على نهج ما كتب، فلا حاجة لنا إلى كتابتها، ولا الإفصاح عنها، لأمرين:

الأول: عدم وجود مقابل في اللغة يتحملها؛ لأنها أمر جد خاص، واللغة وضعت للتفاهم بين البشر.

والأمر الثاني: أنه لا فائدة في ذِكْرِها؛ لأن الإنسان إذا لم يصل إليها لا ينتفع بها، وإذا وصل إليها حصّلها من غير هذه الألقاب، وهذا هو الذي يتكلم عنه أهل الله في كتبهم، عن الأسرار التي تصان على غير أهلها، أو غير المقدور على الكلام عليها.





(باب)
في الذين يُسِيئون الظن بأهل الولاية والْمعرفة بالله

بعض الناس يسيئون الظن بأولياء الله، يظنون أنهم يتكلمون عن أمور مخالفة للشريعة، وما هي إلا أمور مردّها إلىٰ الأدب مع الله، ولكن بصورة يعجز اللسان، وتعجز اللغة عن أداء مقابلها وهذا هو حقيقتها، كل هذا يعلمنا الأدب أيضًا مع أولياء الله، وأنه لا ينبغي أن نتسرع في التهمة لأمر نهرف فيه بما لا نعرف، ينبغي علينا أن نتأدب معهم، ولذلك يأتي محيي الدين بن العربي ليعطي لنا مثلًا قويًا وحكمًا عجيبًا ويقول: (التصديق بنا ولاية)؛ لأن التصديق بالولي الذي ظهرت عليه علامات الشرع، وتمسكه، والتزامه بالذكر والفكر، وسيره وأدبه مع الله، وإرشاده للخلق لدين الحق، فالإيمان بما وراء ذلك إنما هو إيمان بالغيب، فالتصديق به ولاية.

(التصديق بنا ولاية) يحملها بعض الناس علىٰ أنه وكأنه إرهاب فكري، أو سيطرة علىٰ الناس، والأمر ليس كذلك، لا إرهاب فكري في هذا، ولا تسلُّط، وأولياء الله يفرون من غين الأغيار، وهم يريدون أن يغلقوا قلبهم عن الخلق؛ فهم لا يريدون أن يروا أحدًا، ولا يطيقون معاشرة أحد، ولكن نحن الذين نجري وراءهم لكن هم يفرون منا، فهم لا يريدون دنيا يتمولونها، ولا يريدون أتباعًا يكهنون أحوالهم، ومَن فعل ذلك فهو مُدَّع وليس وليًا من أولياء الله.



وَلِيّ الله يفر من الناس، ويحدث له الضيق من مخالطتهم، فيصبر، ويستغفر ربه، ويضغط على نفسه حتى يفتح قلبه وزاده للناس، لأنه مكلَّفٌ بتبليغ الدعوة، والإرشاد إلى دين الحق، والنصح للناس، ولكنه من شوقه إلى ربه يمل الناس، ولا يريد أن ينظر في وجوههم من شدة توجهه إلى ربه ﷻ، الشوق يلعب بالقلوب، ويجعلها تغلق باب الخلق، وباب الحق مفتوح دائمًا.



(باب)

في اللطائف الخمس وكيفية ترقي الإنسان فيها

هذه اللطائف الخمسة: القلب، والروح، والسر، والخفي، والأخفىٰ، يترقَّىٰ فيها الإنسان، ويشعر بها في أماكن معينة في صدره؛ فيشعر بنحو برد في الصدر عند الذِّكْر، ويشعر بنحو لذة عجيبة غير موصوفة عند الذِّكْر، ويشعر أيضًا بأماكنها، وهي أماكن معروفة في الصدر، فيترقىٰ مع ترقيه في الذِّكْر والإخلاص فيه، يترقىٰ شيئًا فشيئًا من مرحلة إلىٰ مرحلة، ومن الأدب مع الله ألا ينقل المريد السالك نفسه من مرحلة إلىٰ مرحلة، بل يجعل الله هو الذي ينقله، من الأدب مع الله ألا يتشوف المريد للمرحلة الأعلىٰ بل يرضىٰ ويسلم، وهذا أمر في غاية الصعوبة، لأن الإنسان جُبِلَ علىٰ الطموح، وجُبِلَ علىٰ الطمع، وجبل علىٰ أن يرىٰ نفسه خير الناس، فيحاول أن ينقل نفسه، وهذا ليس من الأدب، ويحاول أن يتشوف وأن يطمح، والطموح والطمع في هذا ضد الأدب، إنما الأدب في الرضا والتسليم، ومن أجل ذلك نرىٰ دائمًا ولي الله السالك الذي ﷺ دائمًا في تهمة نفسه، دائمًا ينظر إلىٰ ما هو أقل منه، دائمًا يحمد ربنا ﷻ علىٰ ما أولاه من نعمه، ولكن الوصول إلىٰ هذه الدرجة العلية أمر يحتاج إلىٰ مجاهدة النفس، وقليل من الناس من يجاهد نفسه، وكثير من الناس يترك نفسه لنفسه ترتع كما تشاء، يقول البوصيري:

والنَّفْسُ كالطفلِ إنْ تهمله شبَّ
علىٰ حُبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ



فحاذر النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهمِ

ولا تطع منهما خصمًا ولا حَكَمًا

فأنت تعلم كيد الخصم والحَكَمِ

وراعها وهي في الأعمالِ سائمة

فإن هي استحلت المرعىٰ فلا تسم

بمعنىٰ أن الإنسان يعمل لله، ولا يستلذ بهذا العمل أو يتفاخر به علىٰ الآخرين، فينبغي علىٰ الإنسان أن يراقب نفسه، وألا يترك نفسه ترتع كما تشاء من غير مراقبة، ومن غير منع، أو حبس، أو صبر لها بطريق الله سبحانه وتعالىٰ أدبًا مع الله، إذا فعل الإنسان هذا وجد في نفسه ذلك الصبر، وإذا لم يفعل ذلك أغلق عليه وحجب من ضمن الحجب الكثيرة التي نتكلم عنها.

هذه اللطائف الخمسة لها تعلقات بتلك المراتب وبهذه العوالم التي ذكرناها، ومن أجل ذلك ولكثرتها ولتشابكها احتاج السالك إلىٰ الشيخ الذي يوفر له التجربة، ويوفر عليه أن يدخل في اختبار وامتحان، قد لا يقدر عليه في بعض الأحيان.

احتاج إلىٰ الشيخ المعلم المرشد الكامل الذي يوجهه، ويربيه، ويجذبه، ويعلمه، ويوفر عليه الأوقات، ويدله علىٰ ربه، وهذا لا بد منه للسالك.





(باب)
ومن قواعد الطريق إلى الله: الدَّيْمُومَة على العمل

ومن آداب الطريق، ومن قواعده، وحتىٰ يحقق ما نقول من الدَّيْمُومَة المذكورة في قوله ﷺ: «**أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَىٰ اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**»[1]، فهذه السيدة عائشة رضي الله عنها تصف سيد الخلق ﷺ فتقول: «**كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً**»[2] يعني دائمًا.

وأهل الله يقولون: (إذا انقطع الوِرْد انقطع الوارد)، فقولهم: (من قطع الوِرْد) يعني لم يستدمه، ولم يواظب عليه، وأخذ يذكر في يوم دون يوم، (انقطع عنه الوارد)، والوارد هو الذي يرقيه، والوارد هو الذي يجعل هناك تطورًا، وتقدمًا، وسعيًا متصلًا في الطريق، هذا هو نفس معنىٰ قولهم: (ملتفت لا يصل)؛ لأن الملتفت ينقطع عن السير، فينقطع عن الوصول، حيث إنه يلتفت يمينًا ويسارًا كل خطوة، والوارد هذا قد يشتمل علىٰ أسرار، وقد يشتمل علىٰ أنوار، والوارد يوجه الإنسان، وإن كانت مردوده إلىٰ الملك أو الملكوت، لكن سننتقي منها ما يعلمنا الأدب مع الله، فالواردات من أنوار وأسرار تعلمنا الأدب مع الله، فنزداد بذلك أدبًا، فنصل إلىٰ الله رب العالمين، ولكن من قَطَعَ الورد قَطع الوارد.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: (٥/٢٢٧٣)، ومسلم في صحيحه: (١/٥٤١)، وابن حبان في صحيحه: (٤/٤٤٦).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (٢/٧٠١)، ومسلم في صحيحه: (١/٥٤١)، وابن حبان في صحيحه: (٤/٤٠٨)، وابن خزيمة في صحيحه: (٢/٢٦٣) وأبو داود في سننه: (٢/٤٨).



الورد يبدأ بالبناء؛ نريد أن نبني شيئًا وكأنه مخزن نخزن فيه الأنوار والأسرار، فكيف ننشئ هذا؟ فتأملوا في أسماء الله ووجدوا منها سبعة، هذه السبعة تبنىٰ عليها الأعمدة، ويبنىٰ عليها الباب، وتبنىٰ الأسقف علىٰ هذه الأعمدة فتحدد، ثم بعد ذلك جاء الشيخ عبد القادر الجيلاني وقال: إن هذا البناء يحتاج إلىٰ حوائط حتىٰ يكون مخزنًا محكمًا، واختار ستة أسماء للتلاوة بعد السبعة.

واختلف أهل الله في هذه السبعة كيف تتلىٰ؟ فكل شيخ له طريقة، كما أن كل مهندس له طريقة في بناء الأعمدة والأسقف والحوائط والمواد التي يستخدمها، هل هي من مسلح؟ أم أنها أعمدة خشبية، أم أنها أعمدة من مواد بناء الطائرات، تختلف ولكن الفكرة واحدة، وهي وجود مخزن محكم لوضع الأسرار والأنوار فيها، وقد كان كل اسم من الأسماء السبعة له رقم عندهم، فلما اختلط الحال، أصبح الجو الذي نعيش فيه مختلفًا عن الجو الذي كانوا يعيشون فيه.

فلم يكن هناك أشعة ذرة، ولا راديو، ولا رادار، ولا تليفزيون، حتىٰ يمكنك أن تتصور كيف أن الجو الذي يحيط بنا قد امتلأ بكل ألسنة الأرض، وبكل الصور المنقولة.

والدليل علىٰ ذلك: أننا لو أتينا الآن بجهاز تليفزيون، وفتحناه، سيأتي لنا كل العالم هنا في هذا المكان، فالذي يحيط بنا يختلف عما كان يحيط بالإمام عبد القادر الجيلاني، وهذا يؤثر؛ لأننا ونحن نسير، نسير في اتجاه خلق الله، فالبيئة تؤثر، ومن أجل ذلك جعلوها مائة ألف؛ فنذكر كل اسم منها مائة ألف، إلا إذا حدثت علامات يعرفها الشيوخ، العلامات هذه ليست واحدة، ولذلك



لا تقال، إنما يعرفها الشيخ بفراسة وبصيرة، وإذا ما كلمناه فإنه يقول: انتقل إلىٰ الاسم الذي بعده يكفينا هذا، وصلنا إلىٰ مقصودنا من هذه المرحلة والحمد الله، الغرض من بناء المخزن قد تم.

إذن فلنبدأ لمن أراد أن يبدأ بذكر (لا إله إلا الله) مائة، ثم بعد ذلك إذا انتهىٰ منها يدخل في: (يا الله)، ثم (يا هو)، وكل هذا الكلام موجود في كتاب: (الهداية) لسيدنا الشيخ، خذوه واقرأوه، وامشوا عليه علىٰ نمط ما وصفه، فرصة أن الشيخ أجاز إجازة عامة لمن عاصره بالأخذ عنه في الطريق إلىٰ الله، وهذه الفرصة لا تتكرر كثيرًا، ولا يقوم به الشيخ إلا بتوفيق من الله، وبإذن مخصوص منه، ومثل هذا لا بد أن الشيخ انكشف له فيه سر، وأُذن له فيه، فأذن لنا؛ لأنه لا يستطيع أن يأذن من نفسه، أو من هواه؛ لأن هؤلاء الناس تخلّصوا من هواهم، فاقرأوا هذا وابدأوا فيه، ثم بعد ذلك يفتح الله سبحانه تعالىٰ علىٰ من يشاء، ولا يكون مقصود واحد منكم أن يترقىٰ أو أن يكون خيرًا من صاحبه، بل يكون المقصود هو عبادة الله وحده، وأنه لا إله إلا الله، وأنه ينبغي علينا أن نخلص الأمر كله لله، فإذا سرنا علىٰ هذا فالأمر واضح.

ثم إن الكم في اليوم حسب المستطاع، خمسمائة، أو ألف، أو ألفان، أو عشرة آلاف، فهي عبادة لا ملجأ فيها إلىٰ التسرع، فنراعي الكم دون التعبد ولا نلجأ فيها إلىٰ التهاون والترك فينفرط العقد، وينقطع الوارد! بل علينا أن نستمر في ذلك.

وفي هذا الاستمرار سنرىٰ أحيانًا شدة وتعبًا، وأحيانًا أخرىٰ نرىٰ تيسيرًا، لأنّ الأمر كله لا نقصد به أن نحصل سعادة دنيوية ولا راحة نفسية، ولا حتىٰ ترقٍ، إنما نقصد منه عبادة الله، ونقصد به رضا الله، لا نقصد به أيضًا أن هذه



الأشياء تحقق ما تحققه من آثار كونية، لأنه ممكن بالذكر أن ينكشف لي شيء فلا ألتفت إليه؛ لأن هذا الكشف إنما هو شاغل يشغل السالك في طريق الله، يشغله عن الله فينبغي أن لا يلتفت إليه.

وأرجع مرة أخرىٰ إلىٰ الذِّكْر، وإلىٰ قصد الله، فالله مقصودي ورضاه مطلوبي، هذا هو ملخص المسألة، فإذا سرنا علىٰ هذا، وانتهينا من الأسماء الثلاثة عشر، بعد ذلك نقرأ الأسماء الحسنىٰ، وبعد انتهائنا منها -كل اسم يوم- فإننا نصل إلىٰ ورد وذِكْر معين وجدنا فيه قلبنا؛ لأن الذِّكْر المقصود به أن يجد المكلف قلبه فيه، والاسم الذي هو كذلك يشتغل به المكلف إلىٰ أن يموت؛ مع الورد العادي الذي هو الاستغفار، والصلاة علىٰ النبي ﷺ، و(لا إله إلا الله) في الصباح وفي المساء، وبهذا يكون الإنسان قد دخل في دائرة الذَّاكرين، ثم بعد ذلك يفعل ما يشاء، وليس المقصود أن يفعل ما يشاء من إثم ومعصية، بل يفعل ما يشاء من عبادة، وذِكْر، وتوجُّه إلىٰ الله، وزيادة في الخير ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] فهذا هو المقصود بالكلام.



(١) سورة الحج، آية: [٧٧].



(باب)
عودة إلى الكلام عن المقامات والأحوال، وأن الكريم سبحانه إذا وَهَبَ مَا سَلَبَ

ومما ذكرنا في طريق الله تعالىٰ قضية المقامات والأحوال، ومررنا عليها، وعرّفناها بـ: أن المقام أمر مستقر يجد العابد نفسه فيه، إذا ترقىٰ إليه لا يهبط منه، فإن: (الكريم إذا وهب ما سلب)، هذه من قواعد الطريق: الكريم -وهو الله- إذا وهب الإنسان هبة معينة، بأن أعطاه سرًا من الأسرار، أو أكرمه بنور من الأنوار، أو فتح عليه بفتح من الفتوح، أو علمه قضية من القضايا، أو رقّاه إلىٰ مقام من مقامات العبودية فإنه سبحانه لا يسلبه، ولكن قد يسلب ثوابه -والعياذ بالله-، وهذا يسمىٰ الخذلان نعوذ بالله منه، ولذلك فإن أولياء الله ليسوا معصومين، بل هم معرضون تحت قدر الله ﷻ للمعصية، ومعرضون أيضًا للسلب، والسلب هنا هو سلب المكانة وليس سلب المقام، يعنىٰ تجده هو نفسه يشعر بما يشعر به ولكنه يسلب، بمعنىٰ أنه عندما عصىٰ الله تعالىٰ، وأصرّ علىٰ عصيانه، فإن الله ﷻ يسلب منه ثوابه، يوقف الثواب، لكن ما وصل إليه من مقام فإن الكريم إذا وهب ما سلب.

فالمقام مستقر والحال متغير، الحال يرد علىٰ الإنسان ويزول، يأتي ويذهب، وهذه الأحوال نجد القلب يمتلئ بها فجأة، ثم بعد ذلك تزول أيضًا فجأة، أي كلمة الحال كلمة تعني التغير، والزوال بسرعة، وعدم الاستقرار، والإتيان بطريقة مفاجئة، والذهاب عن القلب بطريقة مفاجئة.



والأحوال هذه تأتي أيضًا من الواردات، يعني أن الواردات من قبيل الأحوال، فالإنسان وهو جالس يجد في قلبه أنه لا بد عليه أن يتوب، فهذا وارد، ويجد أنه لا بد عليه أن يراقب الله في أعماله، فهذا وارد، ويجد أنه لابد عليه أن يخلّي قلبه من القبيح، فهذا وارد، أو أن يذكر بالذكر الفلاني، فهذا وارد، أو أن يمتنع من الشيء الفلاني، فهذا وارد من الواردات، ثم يزول هذا الأمر، وتزول الرغبة فيه، وينتهي، ويتحول، ولذلك سُمّي حالًا، ودوام الحال من المحال، فالكلام هذا الذي نتكلمه هو أصله في الطريق من كلام العلماء والمشايخ، ثم شاع في الناس بعد ذلك: (دوام الحال من المحال) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، ولكن أصلها لما ظهرت شاعت من طريق الصوفية (دوام الحال من المحال) لماذا ؟ لأنه حال، ولو بقىٰ ما كان حالًا، ولا يكون حينئذ دوام حال بل يكون دوام مقام، فالمقام شأنه الدوام، والثبات، والاستقرار، وعدم السلب.

هذه المقامات لعلّنا نأخذها مقامًا مقامًا، وقد ألَّف فيها الشيخ الهروي كتابًا أسماه: (منازل السائرين).

تكلّمنا فيما سبق عن الطريق، وعن آدابه، وعن أركانه، وعما ينبغي أن يفعله المريد في سلوكه إلىٰ الله ﷻ، وتكلَّمنا عن الذِّكْر، وعن الفكر، وعن الخلوة، وسأل كثير من الناس أنهم يشعرون أن الصوفية يختلفون عن غيرهم من المسلمين، لدرجة أن بعضهم يتهمهم بأمور، فمن أين أتىٰ هذا التميُّز؟ ومن أين أتت هذه التُّهَم؟ فالحاصل: أن شريعتنا الغرَّاء جاءت إلينا

(١) سورة آل عمران، آية: [١٤٠].



عن رسول الله ﷺ في صورة الكتاب والسُّنّة، والكتاب والسُّنّة ورَدَا بلغة العرب، ولغة العرب لها دلالات في ألفاظها وفي تراكيبها، مَن يقرأ هذه اللغة يفهم عنها أشياء محدّدة معيّنة، تمثل أسس الشريعة، وتمثل الأمر الذي يشترك فيه الكافة، سواء أكانوا من العوام غير السالكين لطريق الله، أو ممن بَدَأَ السّير إلىٰ الله ﷻ، أو ممن وصل إلىٰ مراتب القُرب فكان من المقرَّبين، وهذا يوافق التكليف، فالتكليف عام يشمل الرجال والنساء، ويشمل العرب والعجم، ويشمل الماضي، والحاضر، والمستقبل، فكل المسلمين كُلِّفُوا بالصلاة، وبالصيام، وبالحجّ، وبالذِّكْر، وبالامتناع عن المعاصي، وبفعل الخيرات، وهكذا.



(باب)

في أن الفقهاء يخدمون الشرع من وجه ،وأن الصوفية يخدمون الشرع من وجه ، وأن الإنسان لا يسير إلا بالمنهجين معًا ، فهما كالجناحين للطائر ،وبيان حقيقة التصوف ودوره في خدمة الشرع الشريف

كل المسلمين معهم اللغة التي ينبغي أن يتخذوها في فهم الكتاب والسنة، وعلىٰ ذلك درج الفقهاء، والفقهاء هم أصحاب الشريعة، نظروا في الكتاب والسنة، وفهموا من الكتاب والسنة شريعة الله، وهذه الشريعة، وهذا الفهم فهم أساسي، ينبغي أن نشترك جميعًا فيه: أن الصلاة واجبة، وأن السرقة حرام، وغيرها من الواجبات والمحرمات، وهذا يسمونه بظاهر الشريعة، بعد ذلك، بعد أن آمنا كلنا بهذا اختلفنا، فمنّا من وقف عند ظاهر هذا، فعندما سمع الله -تعالىٰ- يقول: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] عرف ما هي الصلاة، وما إقامتها، وبدأ يسأل كيف نبدأ الصلاة؟ فأجابه الفقيه بالتكبير؛ لأن النبي ﷺ قال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[2]، فذهب إلىٰ الصلاة وقال: (الله أكبر)، لم يقل: (الرحمن أكبر)، ولم يقل: (الله أعظم)، ولم يستعمل اسمًا آخر غير اسم الله، وعلىٰ ذلك فاستعمال اسم الله واجب، لابد أن نقول: (الله)، لا يصح أن نقول: الرحمن، ولا القوي، ولا المتين، وإن كانت من أسماء الله الحسنىٰ،

---

(١) سورة الإسراء، آية: [٧٨].

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (٢٢٦/١)، وابن حبان في صحيحه: (٥٤١/٤)، وابن خزيمة في صحيحه: (٢٠٦/١)، والبيهقي في السنن الكبرىٰ: (٣٤٥/٢).



ونقول: (أكبر) ولا نَصِفه بصفة مما يستحقها ﷻ، كالأجل، وكالأعظم.. نقول: (الله أكبر)، وذلك أن النبي ﷺ قال هذا، وقال: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي».

ولابد علينا بعد القراءة أن نركع، لا أن نسجد، ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يسجد، ثم يقوم ليركع، فيقدم السجود على الركوع، وما ذلك إلا لأن النبي ﷺ فعل هذا، وأمرنا بأن نتبعه فيما فعل، وضع اليد على اليد هيئة، وقراءة السورة من بعد الفاتحة سنة، والتسبيح أثناء الركوع هيئة، ومعنى الهيئة أن الإنسان لو تركها -ولو عمدًا- فلا شيء عليه، إنما يكون زاهدًا في تحصيل الثواب والأجر! ويأخذ هذا الإنسان يسأل عن صلاته كلمةً كلمة، وفعلًا فعلًا، وشيئًا شيئًا، ويتعلمها، ويتقنها، فهو يسأل: كيف أصلي؟ لكنه قليلًا ما يسأل عن الخشوع، وقليلًا ما يسأل عن: كيف يستحضر الله ﷻ في قلبه وهو قائم يصلي، وقليلًا ما يسأل عن سر الصلاة ، وهدفها، والحكمة أن فَرَضها الله ﷻ علينا، قليلًا ما يسأل عن معنى هذه الكلمة (الصلاة) أما الفقيه الذي يبحث عن هيئتها، وعن كيفية إيقاعها، فيقول: (الصلاة من العطف)، وينتهي بحثه هنا.

لكن الثاني -وهو المتصوف- لا يقف عند ظاهر الصلاة، وإنما يبحث عن سرها، وحكمتها، ولوازمها، وما يترتب على الأثر القلبي منها، وكيف يخشع فيها؟ وكيف يذكر الله باستحضاره من خلالها ؟ وكيف تؤدى هذه الصلاة بعد ذلك إلى أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر؟ وكيف يجعل هذه الصلاة في وسط ذكر الله، ويجعل ذكر الله محيطًا بها، من قبلها، ومن بعدها، وفيها، حتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت، آية: [٤٥].



الصوفي لا يقف عند هذه الدرجة، لكنه لا ينكرها، وهو يتعلم الصلاة كما يتعلم الناس، إلا أنه لا يقف عند ظواهرها وشكلها كما يقف الناس.

إذا سُئِلَ الفقيه عن الخشوع ما هو؟ فقال: أن يضع الإنسان بصره موضع سجوده، فاستدل بالحركة، وبالجارحة الظاهرة علىٰ ما في القلب والأمر ليس كذلك؛ لأن هذه مجرد علامة قد توجد ولا يوجد خشوع في القلب.

إذًا الصوفي لا يقف عند النصوص، لكنه لا ينكرها، وهو لا يقف عند الظواهر، لكنه لا يتركها، إنما يطلب ما هو فوق ذلك، يطلب أثر دلالة النصوص، ولوازم النصوص، وآداب النصوص.

إذًا يَفْرِق المتصوف عن غيره أنه يطلب الأدب للأشياء، وغيره يطلب الأشياء، وهناك فارق بين من طلب الشيء وأدبه، وبين من طلب الشيء وغفل عن أدبه!

هناك فريق ضال مضل، ذهب إلىٰ أنه يمكن أن نحصل الآداب دون الأشياء، وأن نحصل الثمرة دون الشجرة، أو أن نحصل الشجرة دون البذرة، وهو ضرب من الخبل، وهؤلاء تَسَمُّوا بالباطنية، والباطنية كانت تأخذ ظلال الأشياء، وفي بعض الأحيان آدابها، ولوازمها، وتترك الشيء نفسه، فتأتي وتقول: (إن الصلاة عبارة عن التوجه إلىٰ الشيخ، أو الإمام المعصوم)، أو غير ذلك من الأقوال الباطلة، لكن ليست هي الخمسة التي عرفناها من شرع الله، ولا أن الظهر أربع ركعات، ولا أن الركوع قبل السجود، ولا مثل هذا، والوضوء معناه أن نطهر قلوبنا من بعض التوجهات والتوجسات ويكفي هذا، والامتثال معناه... وهكذا.



فأصبح عندنا ثلاث فرق: فرقة تتمسك بالظاهر وتترك الآداب، وفرقة تتمسك بالآداب وتترك الظواهر، وفرقة تجمع بينهما وهم المتصوفة على الحقيقة.

وهم قد يشابهون الباطنية في الظاهر وفي الصورة، من حيث إنهم يهتمون بالآداب كما اهتم بها الباطنية، ولكنهم يخالفونهم في الحقيقة؛ لأنهم يتمسكون بهذه الظواهر تمسكًا تامًا، ويرون أن التفريط فيها يخرج الإنسان عن الملة، هذا هو الفرق بين الصوفية وبين عموم الناس، وبين الصوفية وبين الباطنية، فيما أُتهموا فيه من أنهم قد اشتركوا مع الباطنية في شيء.

الصوفية هم أهل الله؛ لأنهم حافظوا على الوسيلة، وعلى المقصد، أما من شغلته الوسيلة عن المقصد فهو في غفلة، ومن ادَّعى الوصول إلى المقصد بدون وسيلة فهو في كفر وزندقة، ومن هنا أتت القاعدة الذهبية الصوفية التي تقول: (من تشرع دون أن يتحقق فقد تفسق، ومن تحقق دون أن يتشرع فقد تزندق، ومن تشرع وتحقَّق فهو الموفق) فجمعوا بين الأمرين.

فالذي يترك الصلاة ويدّعي أنه يخشع، وأنه يعبد ،هذا زنديق، والذي يتمسك بالصلاة ويترك آثارها، بالنهي عن المنكر والفاحشة، ويترك آثارها من الخشوع، فهذا ظاهره الخير، وباطنه من قِبَله العذاب.

هذا هو الحال، وهذه هي التهمة، وهذه هي القاعدة، فالقاعدة التي معنا: من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق، ومعلوم أن الفسق معناه فيه قصور ومعصية وشيء من هذا القبيل، إلا أنه مسلم، ومن تحقق دون أن يتشرع فقد تزندق، لأن الشريعة أساس من الأسس، وهي بداية كل شيء، وهي الوعاء الذي يُحمل فيه الخير، وهي لا يمكن تركها لبيان الحقيقة أو رفض التهمة، فينبغي علينا أن نفهم الموقف الصوفي الحقيقي.



الزنديق في الحقيقة يطلق على المنافق، ويطلق أيضًا على العَدَمِي، والعدمي هو الذي يصلي الفرض وينقض الأرض، وهذا كان من أشد أنواع السرقة والعدوان، والاغتصاب والإجرام، أن الإنسان يأتي فيستأجر بيتًا بجوار بيت غني، ويأخذ في عمل نفق في الأرض حتى يصل إلى البيت من الأرض، لا من الشباك، ولا من الباب، لا يأتيه من السماء، ولا يأتيه من المواجهة، بل يأتيه من الأرض، هذا يحتاج إلى وقت، ويحتاج إلى آلة، ويحتاج إلى فن وقُدْرة، حتى ينشئ هذا النفق، يعني كان ينقض الأرض حتى يسرق الجيران فهو مجرم أصلي، مجرم محترف، مجرم مستديم، لأنه عنده فن وعنده صبر ووقت، وهو لا يتوب ولا يرجع وكذا إلى آخره.. فإذا ضم إلى إجرامه هذا -المتأصل والمتجبر، والذي لا ينفك عنه أبدًا، والذي يخالط قلبه بهذه الصفة، إذا انضم إلى ذلك- أنه يصلي، إذًا فالصلاة هذه تكون لإخفاء هذه الجريمة، فيزداد بذلك إثمًا، لأنه يستغل أمرًا من أمور الدين لإخفاء جريمته ونصبه وسرقته، فهذا معنى المثل السابق: (يصلي الفرض وينقض الأرض)، يعني أن الصلاة لم تكن في ذهنه أبدًا إلا من أجل أن يخفي جريمته، وأن يخفي حاله الرديء، هذه هي الزندقة؛ يذهب فيصلي، ثم بعد ذلك يفعل بنفس الكيفية في الصلاة المعاصي، هذا الإنسان المتناقض الذي لا يندم، ولا يرجع، ويستمر في معصيته ويستحلها زنديق، وهذا شأن هؤلاء الناس الذين يَدَّعُون الشريعة، ويَدَّعون أنهم على خلق طيب، وأن بينهم وبين الله عمارًا، وأنهم ليسوا في حاجة إلى هذه الشريعة بالمرة، لأنهم قد وصلوا إلى الله ﷻ أدبًا، هذا دجال زنديق كما قال أهل الله.

هذه القواعد وضعوها لنا لحمايتنا ونحن نسير في طريق الله من خاطر شيطاني أو بدعة مبتدع أو هوى ضال يريد أن يلفتنا عن الله ورسوله وشريعته.



بعض الناس سدًا لهذه الذريعة أبطل التصوف، وسد بابه، وسد على نفسه الخير الكثير، وأغلق على نفسه الباب لا على غيره! والله ﷻ عندما أنزل الشريعة أنزلها لهذه الطاعة، ولهذه العبادة، ولهذه الآثار، لأن هذا هو الذي ينزل الأنوار، وهو الذي يهدئ البال، وهو الذي يحقق السعادة، وهو الذي يجعل الإنسان محترمًا مع ربه ومع نفسه، والله ﷻ في احترامه لعبده يقول إن الله يباهي بهم ملائكته، فالله ﷻ يباهي ملائكته، والنبي ﷺ ينظر إلى الكعبة ويقول: «**ما أشدَّ حُرْمَتك على اللهِ، وَلَدَم امرئٍ مسلم أشدُّ عند الله حُرْمَةً مِنْكِ**»[1].

فالله ﷻ يحب صنعته، ويحب من صنعته من أطاعه، ويحب ممن أطاعه من حقق في قلبه العبودية له، ولا يتأتى ذلك إلا بثمار العبادة.

إذًا السؤال: ما الفرق بين الصوفي وبين غيره؟ هو الفرق بين من سلك في طريق الله وبين من تزندق وخرج.

ثم يسأل أحدهم: هل ينبغي للصوفي أن يلتفت إلى ذلك؟ والإجابة مكررة، أنه لا ينبغي له أن يلتفت إلى أي شيء سوى الله ﷻ، وقلنا قبل ذلك: إن الله أخفى ثمانية في ثمانية، فمنها أنه أخفى ولي الله في الناس.

إذًا الصوفي هذا ليس تسجيلًا في طريقة، أو في دفتر، أو في مشيخة، أو أنه يُطْلِق على نفسه هذا، هذا يكون من (المتمصوفة) كما كان فضيلة الإمام -رحمة الله عليه- يُطْلِق عليهم، التصوف ليس عنوانًا، ولا اسمًا، ولا هو تسجيلًا في جمعية خيرية مسجلة في الشؤون الاجتماعية، التصوف حالة قلب

---

(١) رواه الترمذي في السنن: (٤/٣٨٧)، وابن ماجه في السنن: (٢/١٢٩٧)، والطبراني في الأوسط: (٦/٣٦)، والبيهقي في شعب الإيمان: (٥/٢٩٦)، وانظر المقاصد الحسنة: (ص٦٨٤).



مع الله، حالة القلب مع الله هذه قد تكون فيمن أظنه أنه ليس كذلك، ولذلك فلا ينبغي إذا ما دخلت في الطريق أن أرىٰ نفسي قد تميزت عن الناس؛ لأن التميز هذا في حد ذاته يقدح في الإخلاص، أنا لا أتميز عن الناس لأنه قد يكون شخصًا، وأنا أظن أنه لا علاقة له بهذا الطريق لأنه ليس له اسم وليس له طريقة، أفضل مني عند الله؛ لأن قلبه قد تعلق بربه ففاز وسبق، والأمر أمر قلب وليس اسم ولا لقب، وقد قالوا في هذا المعنىٰ: (الأمر أمر قلب وليس أمر لقب)، وهذه قاعدة؛ أنا اسمي نقشبندي، أو شاذلي، أو أنا محمدي أو كذا.. إلىٰ آخره، نعم كن هكذا لا بأس، ولكن ينبغي أن نكون علىٰ وعي بأننا لا نتميز بذلك عن خلق الله، وأنك أضعف من رأيت، فلعل الآخر أن يكون أسبق مني عند الله.



(باب)
في أن الفقه والنحو والتصوف والتفسير وغيرها كلها علوم أصلية، استخرجت من مصادر الشرع الشريف، فالمستحدَث فيها هو التقعيد، لكن أصولها في نصوص الشرع الشريف

هناك إذًا تدوين للعلوم لم يكن هناك على عصر النبي ﷺ ولا صحابته الكرام رضي الله عنهم، كلمة تسمى بالنحو وهذا اسم جديد، ولا الصرف، ولم يكن هناك عِلْمًا يسمى بعلم الحديث ولا بالتفسير ولا بالفقه ولا بالسيرة وهكذا.. فلِمَ نسمي هذه الأسماء؟!

هذا نوع من أنواع التبويب، ونوع أيضًا من أنواع العلوم المساعدة للعمل؛ فالتفسير يساعد على فهم كلام الله لكن لم يَدَّعِ أحد أنَّ إنسانًا قد فسّر القرآن بكل ما فيه، والنبي ﷺ يفهمنا ذلك ويقول: لا تنتهي عجائبه.

ولم يَدَّعِ أحد أنه أحاط بالسنة روايةً، أو أنه أحاط بها فهمًا ودرايةً، لا المجتهدون العظام ولا غيرهم، ولم يَدَّعِ أحد أنه أحاط بلغة العرب بدلالتها وتراكيبها، وكذا وفي ألفاظها حتى قال الإمام الشافعي: لا يحيط باللغة إلا نبي.

ولم يَدَّعِ أحد أنه جمع كل أحوال النبي ﷺ لا الصحابة ولا من بعدهم، ولم يَدَّعِ أحد أنه ورث عن النبي ﷺ كمال ما كان عنده، حتى الورثة المحمديون لم يَدَّعوا ذلك، إنما كل واحد يأخذ من رسول الله ﷺ شعاعًا



وفرعًا من شجرة، وغرفة من بحر، والمتصوفة هم النخبة، هم الخاصة الذين تخصصوا في حماية درجة الإحسان.

لما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّم الأمة أمر دينها سأل النبي ﷺ عن الإسلام، وعن الإيمان، وعن الإحسان، فقامت طائفة تحمي الإيمان سَمّوهم علماء التوحيد، وقامت طائفة أخرىٰ تحمي الإسلام سَمّوهم علماء الفقه، وقامت طائفة ثالثة تحمي الإحسان سَمّوهم الصوفية، فعندما نأتي ونقول: لِمَ تسمون هؤلاء فقهاء؟ وهل أهل التوحيد ليسوا بفقهاء؟ وهل المتصوفة ليسوا بفقهاء؟

الفقه في اللغة: الفهم. فلِمَ تجعلونه بعد ما ورد من ناحية الفهم تجعلونه عَلَما علىٰ الأحكام الشرعية العملية؟! هذا لمزيد العلم، ولأنها أمة علم، تحب العلم، وتسعىٰ إليه، وتسعىٰ به، وهي أمة علم علىٰ الخير والهدىٰ؛ لأن اليهود من أمم العلم أيضًا، لكنهم علىٰ ضلالة، وعلىٰ غضب، يعرفون الحق ويحيدون عنه، أما الأمة الإسلامية فتعرف الحق وتتوخىٰ أن تعمل به، أما الصوفية فهم الذين يبحثون عن الحقائق، وينصرون هذا الجانب.

تكلم الصوفية عن التوبة والمراقبة والحب في الله والبغض في الله، وعن تخلية القلب من الحقد والحسد ومن الغيرة، وعن التوكل، والرضا، والتسليم، وعن الذكر، وعن الفكر....إلخ هذه المعاني.

إذا ذهبت إلىٰ أي كتاب من كتب التوحيد ترىٰ أنها تتكلم عن الوجود والعدم، وتتكلم عن صفات الإله، وعن حالة النبوة، وعن يوم القيامة بما فيه من الجنة والنار والصراط وكذا إلىٰ آخره، وانتهىٰ الكتاب ولم يذكر لي في أي مكان منه ما يتعلق بهذا الذي ذكرناه.



ثم إنني أفتح كتاب الفقه فإذ بي أمام كيفية الوضوء، وكيفية الصلاة، وكيفية الصيام، وما الذي يفسد الحج؟ ومن الذين نعطيهم الزكاة؟ وينتهي الكتاب بعدما قرأنا الجهاد والطلاق والزواج وليس فيه شيء من هذا الذي نريده... فأين أبحث؟!

أبحث في علم آخر ليس هذا ولا ذاك، فذهبت إلىٰ التفسير فوجدته يفسر القرآن ويتكلم أيضًا عن بعض الأحكام وبعض السير وبعض الأحاديث، ولم أجد في التفسير هذا.

فذهبت إلىٰ الحديث فوجدته يروي عن رسول الله ﷺ، ويصحح، ويضعف، ويتكلّم عن الرجال: من الذي قابل من، ومن الذي كان ثقة، ومن الذي كان ضعيفًا وأصابه النسيان، ولم يتكلم عن هذا الذي نبحث عنه.

الذي تكلم عن هذا كتاب: (الرسالة القُشَيْرِيَّة) للْقُشَيرِيّ، وكتاب: (قوت القلوب) لأبي طالب المكي، وكتاب: (إحياء علوم الدين) للغزالي، والذي تكلم عن هذا كتاب: (الأكياس والمغترين) للحكيم الترمذي، والذي تكلم عن هذا فلان وفلان وهكذا.. في المكتبة أين نصنف هؤلاء؟ أذهب إلىٰ التفسير.. ليس هذا من موضوع التفسير، ولا من موضوع الحديث، ولا من موضوع التوحيد، ولا من موضوع الأصول، ولا من موضوع الفقه، ولا من موضوع النحو، ولا من موضوع الصرف.

فهل أُلْقِي هذه العلوم أم ماذا أفعل؟ فسمي هؤلاء بالمتصوفة، من أين جاء هذا الكلام؟ فهؤلاء قد صفت قلوبهم لذِكْر الله تعالىٰ فسموا متصوفة بهذا الصفاء الذي أشار إليه رسول الله ﷺ في الحديث حيث يقول: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، وأهل الله الذين اشتغلوا بهذا الفن،



الذين عَمِلُوا هذا العلم لأجل هذا العمل، يقولون إن المرتبة الأولىٰ أعلىٰ من المرتبة الثانية؛ يعني: اعبد الله حتىٰ تصل إلىٰ حالة القرب وكأنك تراه، فإن لم تصل إلىٰ هذه المرحلة فانزل إلىٰ مرحلة أقل منها وهو اعتقادك أنه يراك.

فهذا حديث جليل نؤمن به، ونفهمه، ونتذوق بعد الفهم، فالتذوق هذا من صفاء الصوفي، وهو أنه يتذوق، أنه يتعلم شيئًا آخر.

وعبادة الله إذن متفق عليها، وعلىٰ وجوبها، وعلىٰ الاستمرار بها، وكونها تصل إلىٰ مرحلة التذوق، هذا أمر آخر ينبغي علينا أن نلتفت إليه، وعندما أُغْلِقُ علىٰ نفسي هذا الباب يذهب عني الخير الكثير، وأظل في ظواهر لا معنىٰ لها.

بهذا نكون قد جلينا بعض جوانب التصوف من ناحية المصدر والاستمداد، ومكانة العلم والعمل فيه، مع بيان كيف يسير السالك في سيره إلى الذات العلية، وهي جوانب أحسب أنها مما لايسع الباحث الوقوف عليها، والتعامل معها بحيدة واستقلال. والله تعالى من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.







فهرس المحتويات





فهرس المحتويات









كتب:

د. علي جمعة:

* الكامن في الحضارة الإسلامية.
* تيسير النهج في شرح مناسك الحج.
* الطريق إلى الله.
* فتاوى القرن الجديد.
* خطب الجمعة (سلسلة الوحي والقرآن).
* خطب الجمعة (سلسلة النبي ﷺ).
* خطب الجمعة (التربية والسلوك).
* المنح الإلهية في شرح الحِكَم العطائية.

الشيخ/ أحمد صالح:

* مفتاح السِّير من حياة خير البشر ﷺ.

المستشار/ مصطفى سعفان:

* الورقات في الإصلاح.
* ملامح التجديد.

د. مصطفى البدوي:

* لطائف الإشارات في أسرار المآذن والمنارات.
* علامات آخر الزمان بين العولمة والإرهاب.

الشيخ / حسنين مخلوف:

* شرح أسماء الله الحسنى والآيات الكريمة الواردة فيها.

اسطوانات:

* سلسلة الحكم العطائية.
* سلسلة الخطب.
* نفحات رمضانية (cd).
* سلسلة إحياء علوم الدين.
* محاضرة الإفتاء بين الفقه والواقع.
* سلسلة محاضرات منازل السائرين.

كاسيت:

د. علي جمعة:

* سلسلة محاضرات منازل السائرين. (٨ شرائط).
* خطب:

١- غارات تبشيرية.
٢- جاءت اللجنة وذهبت.
٣- قرآن الحق وفرقان الباطل.
٤- إنا كفيناك المستهزئين.
٥- ماذا بعد رمضان.
٦- جاءت اللجنة وذهبت.

إصدارات البرامج:

د. علي جمعة:

* الحكم العطائية (فيديو).
* نفحات رمضانية (صوت).
* موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (فيديو).
* النبراس (صوت).
* شرح الزبد (صوت).
* السلسلة النورانية في التربية الربانية. (فيديو).
* منازل السائرين (صوت).
* فقه السيرة (فيديو).
* الخطاب الديني (فيديو).
* القيم (فيديو).

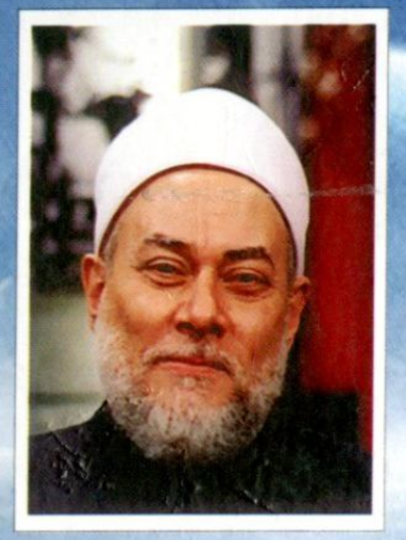
* الإدارة في الإسلام (صوت).
* السنن الإلهية في القرآن (فيديو)
* عوائق الوحدة الإسلامية (فيديو).
* أصول الفقه الحضاري (فيديو).
* الإفتاء بين الفقه والواقع (فيديو).
* المدخل إلى التصوف (فيديو).
* التصوف وتحديات العصر (فيديو).
* أسماء الله الحسنى (صوت).
* رسول الله يسأل رسول الله (فيديو).
* محطات للتذكرة (فيديو).

محاضرات:

١- الكامن في الحضارة الإسلامية.
٢- الإفتاء بين الفقه والواقع.



www.alimamalallama.com



فضيلة الإمام العلامة نور الدين

علي جمعة

مفتي الديار المصرية



هو الطريق الواصل ما بين الدنيا والآخرة، وهو الفرقان الفاصل ما بين أهل الهدى وأهل الضلالة!! إنه الطريق إلى الله!!

وللطريق إلى الله تعالى آداب، ومعالم، وشمائل، ومنارات، وهو حصيلة تجارب الصالحين، وأذواق الصادقين، السائرين إلى الله على بصيرة، المستمسكين بالكتاب والسنة، المحققين لمقاصدهما، والذين هم أهل الوراثة المحمدية خلقا، وهديا، وسمتا، ومعرفة بالله تعالى.

وما أحوج المؤمن في سيره إلى مولاه من معرفة تلك السبل، ولذلك نقدم إليك هذا الكتاب، الذي تعرض فيه لكل ذلك بالشرح والتحليل، سماحة العلامة الجليل، الإمام الشيخ/ علي جمعة مفتي الديار المصرية، فهو ثمرة جديدة، من ثمار علومه ومعارفه، حفظه الله تعالى ورعاه .

الناشر



الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر

تراثنا ... أمانة في أعناقنا

٧٠٤٧ شارع ١٧ - المقطم - القاهرة - مصر

تليفون : +202-25076145 / +202-25087383

+202-0181755566 / +202-25057830

www.alwabell.com E.mail : info@alwabell.com

www.alimamalallama.com